حسنى يوسف الأطير

البداياتُ الأولى للإسْرائيليَات فى الإسْلام



مكتبة النافذة

البداياتُ الأولى للإسْرائيليَات في الإسْلام

البداياتُ الأولى للإسْرائيليَات في الإسْلام

حسنى يُوسف الأطْير

الطبعة الثانية
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

الناشر
مكتبة النافذة

البداياتُ الأولى للإسرائيليَات فى الإسلام

تأليف: حسنى يوسف الأطير

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

الناشر: **مكتبة النافذة**

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى - الثلاثينى - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٣



(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة و احدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)

سورة المائدة: الآية ٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ظهر الإسلام فى جزيرة العرب وأشيع الديانات فيها يومئذ ثلاث: اليهودية، والنصرانية، والوثنية.

وبجانب تلك الثلاث كانت هنالك أيضاً ديانات أخرى يدين بها قلة من هنا، وقلة من هناك: كالصابئية، والمجوسية، والزندقة (أى المانوية، وسائر مذاهب القائلين بأصلين قديمين: كالمزدكية، والديصانية) وغيرها.

ورغم أن الوثنية كانت غالبة على كثير من العرب فى أعماق الجزيرة، إلا أنه كان هناك أيضاً فريقان من سكانها يدينون باليهودية: فريق من أصل يهودى، وهؤلاء يذكر الجاحظ أنهم كانوا بيثرب، وحمير، وتيماء، ووادى القرى فى ولدهرون دون العرب، وفريق آخر كان من العرب أنفسهم، ودان باليهودية يذكر أنهم كانوا من اليمانية، ومن إياد، وربيعة.

كذلك كانت النصرانية - بشهادة الجاحظ، واليعقوبى، وابن حزم، وغيرهم - غالبة على قبائل العرب، حتى إنها وجدت سبيلها أيضاً إلى صفوة من قريش ذكر بعضهم اليعقوبى وابن حزم [1].

وبتدبر تلك الحقائق التاريخية يتأكد لنا أن الإسلام حين جاء لم يكن بمعزل عن أصول الإسرائيليات والمعتقدين بها، بل هو على النقيض قد ولد ومن ورائه ظهارة [2] واسعة

---

١ - أنظر: رسائل الجاحظ جـ ٣ - الرد على النصارى ص٣١٢، اليعقوبى: التاريخ جـ١ ص٢٥٧، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٤٩١. ابن قتيبة المعارف ط الصاوى ص ٢٦٦.

٢ - الظهارة: هى الأرضية أو الخلمية التى تكون وراء الشئ أو الشخص.

من الإسرائيليات رسخت جذورها قبله بقرون، ثم لابسته مستخفية بعض الاستخفاء وقت ظهوره، ثم ظلت تمتزج به بعد ذلك فى وجدان تابعيه حتى اليوم ظاهرة جلية لكل ذى عينين:

فاليهود والنصارى يدينون جميعاً بالتوراة بشتى صحائفها من صادقة وكاذبة، ومن أصيلة أو منحولة. ومن الطبيعى وهم يخالطون العرب ويضمون طوائف منهم إلى دينهم هذا، أو دينهم ذاك، أن يشيع بين العرب حتى الوثنيين منهم الذين لا يؤمنون بيهودية ولا نصرانية، ما يعتقده هؤلاء وهؤلاء من أخبار التوراة عن خلق الكون، وقصة الأبوين، وأخبار الأنبياء وأخبار إبراهيم الخليل، وولديه إسماعيل وإسحق، وما جاء فى ذلك مما يخصهم كعرب من القول بأنهم، أو فريقا منهم، من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وأن اليهود إخوانهم من نسل أخيه إسحق. ثم ما يختلط بذلك من إضافات، وما يحاك بجانبه من خرافات وأساطير يسهل شيوعها، ويستحب ترويجها، بين أولئك السذج من وثنيين وغير وثنيين.

فإذا جاء الإسلام بعد ذلك، جاء طارئاً على أمر قد استقر بينهم، وبلغ عند بعضهم مبلغ الحقائق المسلمة التى لا يقبلون من أحد أن يضعها موضع البحث والنظر، أو يقول فيها بخلاف ما سلموا به. ومن ثم كان دور الإسلام محوطاً بكثير من الصعاب لتصحيح هذه الدعاوى المسلمة، أو نفى بعض منها.

ثم خرج الإسلام بعد ذلك إلى أقطار أخرى، كان الأغلب الأعم عليها التدين بالنصرانية، كمصر، والشام، وبلاد المغرب، وبعض أقطار فارس وما وراء ذلك من مستعمرات خضعت للأمبراطورية الرومانية حاملة لواء النصرانية.

والنصرانية كما ذكرنا تدين بالتوراة وإسرائيلياتها الصادقة والكاذبة، وتضيف هى أيضاً بدورها ما يعن لها مما تخالف فيه بعض إسرائيليات اليهود من ابتداعات وأساطير.

فلما ظهر الإسلام على تلك الأقطار، ودان به الناس، كانت له أيضاً ظهارة إسرائيلية مما كان فى وجدان هؤلاء الذين دانوا به من مخلفات دينهم القديم.

وهكذا صار الإسلام يتحرك - أراد أو لم يرد - على تلك الظهارة الواسعة من الإسرائيليات، التى بدأت تفرض سطوتها على المسلمين سواء بطريق مباشر من اليهود

والنصارى، أو بطريق غير مباشر من الذين استهوتهم أساطير الدينين المذكورين، وراحوا يروجونها بين إخوانهم من المسلمين، أو يستميلون بها فريقاً من أهل الكتاب يطمعون فى إسلامه، أو يثبتون بعض الذين أسلموا ممن كانوا من قبل على اليهودية، أو النصرانية، وأنسوا بتلك الإسرائيليات.

الإسرائيليات إذن لم تطرأ على الإسلام كما يتوهم البعض، فلم تكن معدومة قبله ثم ظهرت بعده، بل هى سابقة عليه بوجودها، ملابسة له بتأثيرها، ماضية معه إلى المصير الذى تتحراه له، وليس إلى المصير الذى يتحراه لذاته!

وهنا يكمن الخطر، كل الخطر:

فقد نجحت الإسرائيليات فعلاً فى أن تجعل المسلمين أنفسهم يقدمون أخبار التوراة على أخبار القرآن [1]، أو فى أقل القليل يقرنون النص القرآنى الذى يرونه مجملاً أو مبهماً، بالنص التوراتى الذى يحسبونه بياناً مفصلاً صحيحاً أصيلاً. ويمضون على النهج التوراتى على ذلك النحو فى كل ما هو مشترك بين الكتابين سواء فى خلق الكون، أو بداية الإنسان، أو خبر الأبوين، أو تاريخ الأنبياء. وبذلك بدا القرآن لا منهج له فى القضايا المذكورة، أو فى تقرير حقائق مستقلة عما ذكرته التوراة فى ذلك.

وهكذا تخلف القرآن، وتقدمت أساطير التوراة!

علينا إذن ان نتعرف على تلك الظهارة من الإسرائيليات التى قارنت ظهور الإسلام؟ كيف كانت، وإلام صارت.

وعلينا أيضاً أن نتعرف على مسالكها الخفية التى تسللت إلى المرويات من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فأضافت إليه، وحورت فيه، حتى إذا كان منتصف القرن الثالث رأينا بعض الإسرائيليات قد استحالت إلى حديث صحيح يوضع وضعاً على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى البخارى ومسلم وغيرهما وتختلق له الأسانيد اختلاقاً، ليصير حقيقة مسلمة عند المسلمين، وبذلك فرضت الإسرائيليات سلطانها على الإسلام، وغلبت على تفسير القرآن، وتاريخ النبوات..

١- أنظر أول فصول (المعارف) لابن قتيبة عن مبتدا الكون، وما تلاه بعد ذلك عن قصة الأبوين، وأخبار الأنبياء، وقد توفى سنة ٢٧٦هـ على ما يرجحه بعض الرواة، وانظر معه أيضاً تاريخ الطبرى المجلد الأول، وهذا أيضاً قد توفى سنة ٣١٠هـ، خلد الإسرائيليات فى تاريخه وتفسره، ودافع عن بعضها دفاعاً عظيماً رغم بطلانه!

ومن ثم، فقد يكون من حقنا بعد أن نبلغ ما ذكرنا أن نقول: إن ذلك كله لن يرد، ولن يبطل، إلا بحقيقة واحدة، ألا وهى: اكتشاف المنهج القرآنى، وتقريره كأصل صحيح، واعتقاد مُسلم، فى تفسير كافة أخباره بشأن الكون، والإنسان، والتاريخ.

لابد إذن من نتائج صحيحة، تنتجها مقدمات صحيحة.

ولا نحسب ذلك يتم لنا فى أقل من أربعة أو خمسة مجلدات، لعل أيسرها هذا المجلد الأول عن: (البدايات الأولى للإسرائيليات فى الإسلام) وقد جعلناه فى قسمين:

القسم الأول: آثار من ترجمة الأسفار المعتمدة فى العهدين القديم والجديد قبل البعثة المحمدية، ووقتها، وبعدها حتى نهاية القرن الثانى للهجرة - الثامن للميلاد.

القسم الثانى: آثار من ترجمة أسفار منحولة فى العهدين القديم والجديد، ظهرت عند الإسلاميين منذ البعثة المحمدية، وحتى نهاية القرن الثانى للهجرة - الثامن للميلاد.

ولست أؤمل كثيراً فى سرعة الاستجابة له، والتجاوب معه، ومع ما يعقبه من مجلدات، ولكنها كلمة أكتب منها مقطعاً، وعلى التاريخ بعد ذلك أن يكمل بالمقطع الآخر.

والكلمة أمانة!

وإذا كان بعض الناس قد نسوا هذه الحقيقة ابتغاء شهرة زائفة، أغرت بها، وحرضت عليها، وسائل الإعلام، التى تحاصر الناس فى كل مكان حتى فى مضاجعهم فإننى أحمد الله أنى لست من الذين يؤجرون أنفسهم، أو ينقادون لأهواء أحد، وإنما هى كلمتى أقولها، ورسالتى أبلغها، ووديعتى أستودعها صدور الغيورين على هذه الملة، فمن شاء أن يقبل فله نفع ما قبل، ومن شاء ألا يقبل فله ما شاء، وأقول كما قال يعقوب عليه السلام:

(إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله، وأعلم من الله مالا تعلمون) [1]

حسنى يوسف الأطير

القاهرة: ١٤١١هـ - ١٩٩١م

١- سورة يوسف: ٣٥.

القسم الأول

آثار من ترجمة الأسفار المعتمدة فى العهدين القديم والجديد قبل البعثة المحمدية وبعدها حتى نهاية القرن الثانى للهجرة - الثامن للميلاد

الفصل الأول

ترجمة التوراة والإنجيل قبل البعثة المحمدية

لم يتمكن علماء الكتاب المقدس حتى اليوم من وضع يدهم على دليل واحد يشهد بوجود ترجمة عربية للتوراة أو الإنجيل، أو كليهما معاً، قبل البعثة المحمدية. وغاية ما قرروه فى هذا الشأن أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس عرفوا بها هى تلك الترجمة التى قام بها (يوحنا) أسقف أشبيلية سنة ٧٢٤م لمساعدة المسيحيين المغاربة (Moors) أى المسيحيين العرب بالمغرب، وتمكينهم من مدافعة المسلمين.

وهذه النتيجة أنعشت غرورهم، فقد بنوا عليها أن عدم ترجمة الإنجيل إلى العربية لنصارى الجزيرة، وللوثنيين فيها، كان من أكبر الأسباب فى نظرهم لوقوع العرب من نصارى ووثنيين وغيرهم تحت تأثير القرآن، فآمنوا بمحمد ﷺ، بينما لو كان له نسخة عربية لأمكنهم به صدّ القرآن، ودفع محمد، وإنقاذ العرب من المصير الذى آلوا إليه باعتناق الإسلام!

وهؤلاء لم يسألوا أنفسهم: إذا كانت نسخة عربية من الإنجيل كافية بزعمهم لصدّ العرب عن القرآن، فلماذا لم تكف ترجمات الإنجيل إلى القبطية بالبحيرية والصعيدية فى صد أقباط مصر عن الإسلام، ولم تكف ترجماته فى السريانية فى صدّ بلاد الشام عن الإسلام؟!

والعجب أن المسلمين أنفسهم يحبذون ذلك الزعم العاجز بأن الإنجيل لم يترجم إلى العربية قبل الإسلام، وكذلك التوراة، متوهمين أن الإقرار بترجمتهما إلى العربية قبل الإسلام يوطد دعواهم فى استمداد محمد ﷺ لوحيه من كتبهم. ومن ثم فالإقرار

بالنتيجة التى انتهوا إليها بعدم وجود شاهد على ترجمتهما إلى العربية قبل الإسلام يمنع دعواهم، ويوهن من حجاجهم!

وهذا وهم من المسلمين أرداهم فيه ضعف اليقين بحقية دينهم..

فمتى كان اليهود أو النصارى يتحرون العدالة بشأن محمد ﷺ، أو بشأن أى صاحب دين يخالف دينهم، حتى يبالى عاقل بشهادتهم له، أو شهادتهم عليه؟!

على أية حال: نحن نستبعد خلو البيئة العربية التى كانت تعج باليهود والنصارى بمختلف شيعهم وأحزابهم من ترجمات لبعض فصول أو أجزاء من التوراة والإنجيل قبل البعثة، وذلك إذا امتنع أن يكون هنالك شاهد صحيح على قيام ترجمة عربية كاملة ومنظمة لأحد الكتابين أو كليهما.

وقد أقر مؤرخو الإسلام بفشو النصرانية على نطاق واسع فى جزير العرب، وخاصة على أطرافها، وكذلك غلبة اليهودية على أقاليم كاملة منها:

يقول اليعقوبى: (ثم دخل قوم من العرب فى دين اليهود، وفارقوا هذا الدين - (أى الوثنية) - ودخل آخرون فى النصرانية. وتزندق منهم قوم، فقالوا بالثنوية.

(فأما من تهو منهم: فاليمن بأسرها: كان (تبع حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن، فأبطل الأوثان، وتهود من باليمن).

(وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن. لمجاورتهم يهود خيبر، وقريظة، والنضير).

(وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام.

(وأما من تنصر من أحياء العرب: فقوم من قريش من بنى أسد بن عبد العزى، منهم: عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقةبن نوفل بن أسد. ومن بنى تميم: بنو امرئ القيس بن زيد مناة. ومن ربيعة: بنو تغلب. ومن اليمن: طيئ، ومذحج، وبهراء، وسليح، وتنوخ، وغسان، ولخم).

(وتزندق حجر بن عمرو الكندى) [1].

ولم يخرج الجاحظ، وابن قتيبة، وابن حزم الأندلسى عما ذكر اليعقوبى [2].

وكان اليهود قد استوطنوا بلاد العرب منذ خراب الهيكل حوالى سنة ٦٧ أو ٧٠ لميلاد المسيح، حيث تعرضوا للطرد والاضطهاد، فتشتتوا فى الأرض وكانت (يثرب، وحمير، وتيماء ووادى القرى) [3] على ما يقول الجاحظ، هى أبرز مستوطناتهم التى هاجروا إليها، واستقروا بها وآقاموا بها عمائرهم وحصونهم إلى أن جاء الإسلام.

والنصارى أيضاً، كان منهم إلى جانب نصارى الجزيرة، آخرون هاربون إليها بعقائدهم الدينية من اضطهاد إخوانهم أصحاب المذاهب المخالفة التى تساندها السلطة السياسية، وجبروت الأباطرة.

ترجمة التوراة إلى العربية

ومن المستبعد نظرياً أن يظل الغرباء من هؤلاء وهؤلاء حوالى خمسة قرون أو تزيد حتى مطلع الرسالة المحمدية دون أن يستهويهم اللسان العربى، لسان الكثرة الغالبة من العرب أصحاب البلاد، والذين هم العنصر الحقيقى المستهدف بأعمال هؤلاء الغرباء، وأنشطتهم الدينية والاقتصادية.

فاليهود، حتى وإن لم يبشروا بدينهم، مضطرون أن يضعوا ترجمات لبعض من فصول التوراة لإخوانهم الذين ولدوا فى تلك البيئة العربية، وخضعوا لمؤثراتها، واستجابوا للحديث بلسانها، كما حدث ذلك من قبل عندما ترجموا توراتهم العبرانية إلى اليونانية فى القرن الثالث قبل المسيح لإخوانهم من اليهود الذين غلبهم لسان اليونان، لسان الكثرة السائدة من حولهم آنذاك، فما بالنا إذن وقد دان باليهودية كثيرون من العرب أنفسهم على ما ذكره مؤرخو المسلمين الآنف ذكرهم وخاصة المؤرخ اليعقوبى؟!

١- تاريخ اليعقوبى: جـ١ ص٢٥٧.

٢- الجاحظ الرسائل: جـ٣ الرد على النصارى ص٣١٣، ابن قتيبة: المعارف ص٢٦٦، ابن حزم: أنساب العرب ص٤١٩.

٣- ص٣١٢.

واستبعاد هذا الفرض لا يستحب، خاصة وأن القرآن قد ألمح إلى شئ من ذلك فى قوله: (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون) [1].

وهذه الإشارة القرآنية لها أبعاد عميقة:

من ذلك أنه صرح بوجود يهود قال إنهم (أميون)، وهذا يعنى: إما أنهم أصلا من العرب، ثم دانوا باليهودية.

أو أنهم من يهود بنى إسرائيل، لكن غلبهم اللسان العربى، والحياة العربية.

وفى كلتا الحالتين قرر أن علمهم بالكتاب قليل محدود، لكن لهم علماً به على أية حال.

وهذا يستوجب إذن أن لهم اطلاعاً على شئ من الكتاب.

وحيث أنهم كانوا عرباً، أو غلبهم اللسان العربى، فلا سبيل لهم - إذن - إلى الاطلاع على شئ منه إلا بالعربية، ولعل هذا ما برر حكمه على علمهم بالقلة والضحالة حيث (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، وإن هم إلا يظنون) فيثبت لهم علماً بالكتاب، لكن يصفه بغلبة الوهم والظن عليه، وهو شأن عامة المتعلمين غير المحققين.

ومما يثبت أن لهم علما بالكتاب، واطلاعاً على جانب منه، وأنه إنما يأخذ عليهم عجزهم عن الفحص والتحقيق بالاطلاع على أصوله الصحيحة أنه يتوعد من أسماهم: (الذين يكتبون (الكتاب) بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله..)؟ فما الذى يعنيه من أنهم (يكتبون الكتاب بأيديهم)؟ وما الذى يعنيه من استنكاره لقولهم (هذا من عند الله)؟

إنه لم يقل إنهم يكتبون شيئاً يضعونه وضعاً من علمهم، ولكنه يقول إنهم يكتبون (الكتاب) أى يكتبون التوراة، لكن يأخذ عليهم أنهم يتصرفون فى

١- البقرة: ٧٩ - ٧٨.

تدوينها لهؤلاء الأميين من يهود العرب. وأبان عن وجه التصرف بأنهم يبتغون بذلك مصالح دنيوية لم يكشف عن الطرف الذى يبغون أن يحققوا هذه المصالح على حسابه، أيكون ذلك الطرف محمداً ﷺ والمسلمين، أم المسيح عليه السلام والنصارى، أم هؤلاء وهؤلاء معاً؟ لكنه على أية حال، ابان أن هنالك تصرفاً منهم فى تدوين نص الكتاب لهؤلاء الأميين.

وهذا كله يفضى إذن إلى وجود أنشطة لترجمات جزئية من التوراة يغلب عليها التصرف فى الترجمة من حيث المعنى، وعدم الالتزام بالأصل الدقيق، والنص الحرفى للكتاب، لأولئك اليهود الذين وصفهم بأنهم (أميون).

ومهما ساء ظننا باليهود فلا يمكن أن يصل الأمر إلى كونهم يصفون ذلك الذى يقدمونه لإخوانهم الأميين بأن (هذا من عند الله) وهو من وضع أنفسهم، وإنما استنكار القرآن لمقالتهم نابع من تصرفهم فى معنى ما ينقلونه من الكتاب، وإلا لما جاز أصلاً أن يقول (يكتبون (الكتاب) بأيديهم)، فلا وجه لذكر (الكتاب) - باعتباره التوراة - كمكتوب بأيديهم وهم يكتبون غيره مما يستملونه من معارفهم وعلومهم. أما حيث علق ذلك بالكتاب على أنه التوراة فقد أراد إذن أن يبين عن وجه من وجوه نقلهم لنصوص الكتاب إلى من يطلب ذلك من إخوانهم.

والواقع أن معظم النصوص التوارتية التى شاعت فى العصر الإسلامى فى القرنين الأول والثانى يغلب عليها طابع الترجمة بالمعنى، ويندر ان نقع منها على ترجمة دقيقة تلتزم النص الحرفى كما نراه فى الأصول الحالية.

وهذا عند التحقيق يعطى هذا النص القرآنى الذى استشهدنا به قوة عارمة فى توكيد الثقة بأحكامه بشأن كتب الأمتين اليهودية والنصرانية وما كانت عليه فى زمنه ومن قبله.

ومع ذلك ففى النصوص القرآنية ما يومئ إلى توكيد تلك الترجمة العربية للتوراة:

من ذك مثلاً قوله عن موقف الوثنيين العرب من محمد ﷺ: (وقالوا: اساطير

الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً) [1]. فهؤلاء الوثنيون يتهمون محمداً ﷺ بأنه يستمـد ما يتلوه من قرآن من كتب أصحاب الديانات السابقة أى من يهود الجزيرة العربية، وهذا يستلزم بالتالى: معرفته بلغة تلك الكتب، أى بالعبرانية أو الآرامية، أو كونها بالعربية التى يعرفها، ومعرفة الرسول ﷺ بالعبرانية أو الآرامية لا تقوم عليها مجرد شبهة فضلاً عن قرينة أو دليل فلم يبق إذن إلا احتمال كون التوراة التى يتهمونه بالنقل عنها قائمة فى نص عربى حتى يتاح لهم أن يوجهوا إليه مثل هذا الاتهام فيصمت ولا يرد بكون ذلك الكتاب فى لسان لا يعرفه، وإن كانوا فى دعواهم لكاذبين.

من قبيل ذلك أيضاً أن كثيراً من مادة التوراة كانت معروفة للعرب قبل الإسلام خاصة فيما يتعلق بقصة إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحق حتى إن القرآن ليومئ إلى كل من هؤلاء الثلاثة على نحو إجمالى ينم عن كونه يفترض فى هؤلاء العرب سابق علم بهم من قبل، مع أنه يعلم أنه لا مصدر لهم للعلم بذلك إلا أن يكون من التوراة وحدها. وحيث أقر بذلك الذى علموه بشأنهم من التوراة، ولم يعمد إلى تكرار أو تفصيل لما تضمنته من ذلك، وعلمه العرب عنها، فهذا يعنى إذن أنهم تلقوا منها علماً صحيحاً، أو تغلب عليه الصحة ولا سبيل إلى ذلك إلا باطلاع على النص الصحيح سواء كان مترجماً ترجمة حرفية، أو ترجمة بالمعنى. والمسلمون حتى اليوم لا يعلمون بشأن إنجاب إسماعيل وإسحق وشأن هاجر وسارة إلا مما ذكرته التوراة، ولم يكد القرآن يعرض لهذا الأمر إلا فيما يختص بحمل سارة بإسحق على نحو مجمل، لكنه لم يفصل ذلك، ولم يقل عن إسماعيل إنه صار رأساً لأمة كبيرة، وكثرت ذريته كثرة ضخمة، بينما جاء ذلك كله فى التوراة، ويعتقده المسلمون حتى اليوم رغم أنه لم يذكر فى كتابهم.

ثم نأتى بعد ذلك إلى هذا النص القرآنى: (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قل فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. قل: صدق الله، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) [2].

١- الفرقان: ٥.

٢- آل عمران: ٩٣ - ٩٥.

ففى هذا النص يؤمر الرسول أن يطالب اليهود بالتحاكم إلى التوراة للفصل فيما ينازعونه فيه بشأن الطعام المحرم، وأن يتلوها عليه ليبين لهم صحة ما جاء بها من هذا الأمر. ثم نجد الإشارة إلى أن التحكيم قد تحقق، وأثبت صحة ما أخبرهم به الرسول. وهنا نتساءل: أيمكن أن يصح التحاكم إلى كتاب لا يعرف الرسول لغته، ويمكن للخصم أن يكذب عليه فيه، أو يضلله بشأنه؟

التحاكم فى نظرنا لا يصح إلا أن تكون التوراة فى لغة يعرفا الطرفان المتخاصمان إليها: إما فى أصلها العبرانى أو الآرامى، وهذا لا نجد أدنى شبهة أو قرينة توهم بمعرفة الرسول بهما، فيستحيل من ثمة تحقيق التحاكم إلى التوراة فى أى منهما، وإما فى نص عربى، وفى هذه الحالة يكون معروفا للطرفين معا: الرسول العربي ﷺ، ويهود العرب الذين يقع معهم هذا النزاع.

وهذا الاحتمال الأخير هو وحده الاحتمال الراجح.

وعلى نفس النسق نرى هذا النص:

روى البخارى:

(حدثنا مسدد، حدثنا إسماعيل عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، قال:

(أُتى النبى ﷺ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا:

(فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟

(قالوا: نسخم وجوههما، ونخزيهما.

(قال: فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين

(فجاءوا. فقالوا لرجل ممن يرضون: يا أعور: اقرأ!

(فقرا. حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه.

(قال: (أى الرسول ﷺ): إرفع يدك. فرفع يده، فإذا فيه آية الرجم تلوح.

(فقال: يا محمد، إن عليهما الرجم، ولكنا نكاتمه بيننا.

(فأمر بهما فرجما).

وواضح من وضع اليهودى يده على آية الرجم ليخفيها، علمه، أو استشعاره، بأن الرسول ﷺ يمكنه أن يقرأ تلك الآية إن لم يخفها، فمن ثمة حاول إخفاءها.

كذلك فإن إذعانه لأمر الرسول له برفع يده، وعدم قدرته على المكابرة والمغالطة، ومبادرته بالإقرار بأن عليهما الرجم، دال على اقتناعه بالعجز عن الكذب لوضوح النص باللغة التى يعرفها الرسول ﷺ، وإلا لحاول المغالطة، وما كان ليعمد إلى الإخفاء حيث هى آنئذ لغة مجهولة بالنسبة إليه.

ولما كنا نعلم أن الرسول ﷺ لا يعرف الآرامية أو العبرانية، فلا يبقى إذن إلا الإقرار بأن النص كان بالعربية، ومن ثمة كان انكشاف أمرهم أمام الرسول ﷺ.

وعلى ذلك. فدعوانا بترجمة التوراة، أو أجزاء منها، إلى العربية قبل الإسلام، وفى زمنه. هى الاحتمال الوحيد الذى يرقى فى نظرنا إلى درجة اليقين الذى نقطع به، مهما أثار من خلاف أو ضجيج.

ترجمة الإنجيل إلى العربية

أما ترجمة الإنجيل إلى العربيـة قبل الإسـلام وفى وقته فـلا مبرر قط لاستبعاده، أو التشكيك بشأنه:

فقد شهد ثقات المؤرخين المسيحيين، وكذلك كتاب ومؤلفو السيرة المحمدية، أن النصرانية نفذت إلى بلاد العرب منذ القرن الأول المسيحى، وكانت هنالك أسقفيات عربية أسهمت فى المجامع المقدسة. كما أن سائر المذاهب المسيحية المتعارضة قد تواجدت فى البيئة العربية التى كانت تموج بنصارى وافدين من غير العرب، ثم استوطنوا هنالك، واستعربوا، وبنصارى من العرب أهل البلاد الأصليين، آمنوا بها، واستجابوا لها، على أيدى مبشرين كانوا أحياناً يصطنعون بعض الأعاجيب والمدهشات التى تلائم غفلة هؤلاء الوثنيين فيصدقونهم ويؤمنون.

ونحن لا نتصور كثرة النصارى فى البيئة العربية، ولجاجتهم فى الحكاية عن مسيحهم، والدعوة إلى دينهم، والعكوف على عبادتهم وطقوسهم بما ابتدعوه من تلك

الرهبانية التى انقطعوا إليها، ثم المناقشات والصراعات المذهبية التى كانت تتفجر بينهم، وهم فى كل ذلك لا يحملون فى أيديهم نصاً عربياً لأسفار الإنجيل، أو بعض أسفاره.

ذلك أمر مستبعد.

وإنما مصدر الإشكال أن نتصور ذلك فى صورة ترجمة كاملة، أو منظمة متداولة على نطاق واسع يسمح بالعثور على بعض مخطوطاتها، أو مخلفات منها.

كذلك من أسباب الإشكال أن تكون لها صفة الترجمة الرسمية، الشرعية المعتمدة.

ففى رأينا لا حاجة إلى توقع ذلك بالضرورة فيما نعنيه بترجمة عربية للإنجيل قبل البعثة المحمدية.

وإنما يكفى أن نستدل على ترجمة الإنجيل إلى العربية قبل بعثة محمد ﷺ بخبر أورده البخارى، ومسلم فى صحيحيهما من حديث السيدة عائشة عن مبتدإ الوحى إلى الرسول، وهو أيضاً يؤكد ترجمة التوراة إلى العربية قبل البعثة!

وقد أورد البخارى ذلك الخبر أكثر من مرة، رأيناه فى أربعة مواضع منه:

١- فقد روى البخارى فى (بدء الوحى) ما ذكرته السيدة عائشة عن (ورقة بن نوفل) وترجمة الإنجيل، إذ قالت: (... فانطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى)، ابن عم خديجة، وكان امرءا تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب (العبرانى)، فيكتب من (الإنجيل بالعبرانية) ما شاء الله أن يكتب..).

٢- روى البخارى هذا الخبر فى كتاب بدء الخلق من رواية عائشة هكذا: (فرجع النبى ﷺ إلى خديجة يرجف فؤاده، فانطلقت به إلى (ورقة بن نوفل)، وكان رجلاً تنصر يقرأ (الإنجيل بالعربية..).

٣- ورواه أيضاً فى كتاب (التفسير) هكذا: (.. فانطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل)،وهو ابن عم خديجة، أخى أبيها، وكان امراءاً تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب (العربى)، ويكتب من (الإنجيل) (بالعربية) ما شاء الله أن يكتب...).

٤- كما رواه أيضاً فى باب التعبير من كتاب (الإكراه) هكذا: (... وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب (العربى) فيكتب (بالعربية) من (الإنجيل) ما شاء الله أن يكتب....).

ولم تخرج رواية مسلم عن رواية البخارى الأخيرة، وطابقتها تماماً فى هذا الموضع، وجاءت هكذا فى بدء الوحى:

(... فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها: وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربى، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب....).

ونرى من روايات البخارى الأربع هذه التى ذكرناها أن اثنتين منها هما الثالثة والرابعة تتفقان فى كون ورقة: (يكتب من الإنجيل (بالعربية) ما شاء الله أن يكتب). وكذلك توافقهما رواية مسلم.

بينما تنفرد رواية واحدة هى الثانية بالنص على أنه كان ((يقرأ) الإنجيل (بالعربية))، وهذه الرواية على هذا النحو باستعمالها اللفظ (يقرأ) تعطى مدلولاً بالغ الخطر:

فكون ورقة (يقرآ) الإنجيل بالعربية يستلزم بالتالى التسليم بوجود ترجمة عربية للإنجيل من طرف آخر غير ورقة، سابق عليه، أو معاصر له، على السواء.

وورقة إذن، على هذه الرواية، يقرأ ترجمة عربية للإنجيل من عمل غيره.

أما مضمون الروايتين الثالثة والرابعة ومعهما رواية مسلم بكونه (يكتب) من الإنجيل بالعربية ما شاء الله فهذا قد يعنى أنه كان ينسخ من تلك الترجمة العربية التى قرأها نسخا لمن يطلبها.

وعلى ذلك يمكن أن تلتقى هذه الروايات الثلاث عند البخارى ومسلم على توكيد حقيقة معينة هى أن (الإنجيل) قد ترجم إلى (العربية)، واستنسخه الناس منْ ورقة بن نوفل، قبل البعثة المحمدية، بصرف النظر - فى ذلك كله - عن تعيين تلك الترجمة، أو من قام بها، أو تعيين إنجيل بعينه اختصت به الترجمة، أو أنها اشتملت الأناجيل المتعددة.

وعلى هذا قد يمكن تأويل قول السيدة عائشة فى الروايتين الثالثة والرابعة ورواية مسلم بأنه كان (يكتب الكتاب العربى) بأنها تعنى كونه ناسخاً للكتب التى تقرأ باللسان العربى.

وهذا أيضاً يستلزم الإقرار بنشاط ثقافى عند العرب تأليفا ونسخا، وإلا فلا معنى أصلاً لقولها يكتب الكتاب العربى بمعنى النسخ ما لم يوجد التأليف الذى يقوم بنسخه، أو يستنسخه الناس منه.

ترى: أيمكن أن تكون هنالك مناسبة إذن بين عمله هذا ناسخا للكتب، أى (وراقا)، كما كان العرب يسمون من يحترف تلك الصنعة، وبين اسمه (ورقة)؟! لا ندرى!

على أية حال فنحن لم نعرف بشأن (ورقة) هذا إلا فى أيامه الأخيرة وقت البعثة المحمدية، ولا يمتنع عقلا أنه كان باسم آخر قبل ذلك، فلما شهر بهذا الأمر من الدراسة، ونسخ الكتب نودى باسم يناسب ذلك فشهر به، وغلب على اسمه الأول، فطمسه!

هنالك إذن اتفاق بين الرواية الثانية التى تقول إنه كان (يقرأ) الإنجيل (بالعربية)، وبين الروايتين الثالثة والرابعة اللتين تصرحان بأنه كان (يكتب) الإنجيل (بالعربية).

لكن.. تبقى بعد ذلك الرواية الأولى فى البخارى والتى تقرر أنه كان (يكتب (الكتاب العبرانى) ويكتب من الإنجيل (بالعبرانية) ما شاء الله أن يكتب):

فما المقصود هنا باللفظ (يكتب):

أيراد به أنه (يؤلف)؟

أم يراد به أنه (ينسخ)؟

أم يراد به أنه (يترجم)؟

إن كان المقصود أنه (يؤلف) فهذا عين المحال:

فالكتاب (العبرانى) إن كان يراد به أى تأليف باللسان العبرانى، فما نحسب أن ورقة كان من العلم والشأن، العظيم حتى يبلغ به الأمر أن يقوم معلماً للعبرانيين، ومؤلفاً

لهم بلسانهم، وهو الدخيل الغريب الذى يقتات من فتات موائدهم. ولو كان ذلك، أو قريب منه، لعلم به الناس، وأفصح عنه السياق، وتواترت به الأخبار، وهو ما لم يكن بحال.

وإن كان المراد بالكتاب (العبرانى) كتاب موسى، وصحائف التوراة، فتلك جميعاً ينعقد الإجماع عند اليهود والنصارى على كونها تدويناً لوحى منزل تم قبل ورقة هذا بقرون كثيرة، فكيف يؤلف صاحبنا ما كان مؤلفاً من قبل؟

ومثل ذلك يقال أيضاً فى الإنجيل الذى ذكر أن ورقة كان يكتبه (بالعبرانية)، فلا نعلم إنجيلاً كتب بالعبرانية إلا إنجيل العبرانيين أو الناصريين الذى ذكرت الأخبار أنه الأصل العبرانى للإنجيل الذى كتبه من يدعونه (متى)، والذى زعموا أنه كان من تلامذة المسيح، ثم ترجمه بعد ذلك أنصار بولس ترجمة يونانية معدلة توافق مذاهبهم فى ادعاء الألوهية لابن مريم على ما بيناه فى كتابنا عن (عقائد النصارى الموحدين).

فإذا كان ذلك فمن أين لورقة، أو غير ورقة، أن يؤلف إنجيلاً موجوداً من قبله بقرون عديدة؟!

أما إن كان يراد باللفظ (يكتب) أنه (ينسخ) فهذا أيضاً مستبعد:

ذلك أن كونه ناسخاً للاصول العبرانية للتوراة والإنجيل يستلزم بالتالى أن هنالك من يطلبونها، ويستنسخونها منه، فمن يمكن أن يكون هؤلاء:

أهم اليهود العبرانيون؟

أم لعلهم العبرانيون المتنصرون؟

ومحال أن يلجأ اليهود العبرانيون، أو غير العبرانيين، إلى نصرانى أيا كان شأنه يستنسخونه كتابهم المقدس، ويأتمنونه على دقائقه، لما بينهم وبين النصارى من عداء بشأن المسيح، ولما يصطنعه النصارى فى نظرهم من تعويج وتحريف للنصوص المقدسة حتى تلائم دعواهم بشأن المسيح، وقد بلغ الصراع أبعد آماده بين الفريقين إلى الحد الذى جعل اليهود يرجعون عن اعتماد الترجمة السبعينية للتوراة، وأن يقرفوها بالخلل

والفساد، وينكروا أى اعتبار لها، بسبب ما تعلق به النصارى منها بشأن المسيح، هذا مع أنهم هم الذين ترجموها أصلاً من العبرانية إلى اليونانية ترجمة شهدوا هم أنفسهم بدقتها، حتى بلغت بهم المغالاة بشأنها أن قالوا إن من قاموا بها كانوا ملهمين.

فإذا كان ذلك فكيف نتصورهم يأتمنون نصرانياً فرداً من أصل وثنى على مثل هذا الأمر العظيم؟

ثم إذا كان الذين رغبوا إليه فى مثل هذا من اليهود العبرانيين فكيف لم يقوموا هم بذلك وهم أصحاب ذلك اللسان العبرانى الذى توارثوه عن آبائهم، وولدوا فى ظلاله، وتحدثوا به على سجيتهم، وهم أدرى به، وأوغل فى التقصى عن دقائقه ومعانيه؟ هذا بينما صاحبنا ورقة غريب عنه، دخيل على أهله، بضاعته منه مهما عظمت ضئيلة محدودة؟

وما قيل بشأن اليهود العبرانيين يقال مثله بشأن اليهود غير العبرانيين أو غير المتحدثين بالعبرانية.

وفضلاً عن ذلك فهؤلاء اليهود غير العبرانيين لا يحتاجون إلى الأصل العبرانى الذى لا يعرفون لغته. ولا نعلم أنهم كانوا من البحث والتحقيق حتى يطلبوا ذلك.

محال إذن أن يكون ورقة ناسخاً للتوراة أو الإنجيل فى العبرانية لليهود عبرانيين كانوا أو غير عبرانيين!

لا يبقى إذن إلا أن يكون ذلك للنصارى:

لكن.. أى فريق من النصارى: أهم النصارى العبرانيون، أم النصارى العرب؟

يمتنع أن يكون النصارى العبرانيون قد ظلوا على عبرانيتهم حتى زمن ورقة. فلا بينة هنالك، ولا دليل على شئ من ذلك، ومن ثمة لا حاجة بهم أن يقرأوا كتبهم باللسان العبرانى.

ثم إننا لو افترضنا فيهم القصد إلى البحث والتحقيق فلا يسوّغ ذلك لهم أن يعهدوا بمثل هذا الأمر إلى نصرانى دخيل على لغتهم وعقيدتهم نشأ وثنياً، وانحدر من أصل وثنى.

كذلك يمتنع أن يكون نسخ تلك الأصول العبرانية للتوراة والإنجيل لاستعمال نصارى العرب، فلا بينة هنالك قط على أن نصارى العرب، أيا كانت شيعهم ومذاهبهم. كانوا من المعرفة والتحقيق حتى يبلغ بهم التنطس فى العلم أن يطلبوا تلك الأصول العبرانية، ولو كان ذلك لعلمنا به، ولضجت به الدنيا، وتصايح به النصارى فى كل عصر ومصر.

لا يبقى إذن إلا أن يكون المقصود من قولها باللفظ (يكتب) أنه (يترجم) أو (يفسر) على ما كان يقال فى معنى الترجمة عند الأقدمين.

وهذا فى الواقع هو المقصد الحقيقى لهذا الخبر.

وقد يؤكد هذا قول السيدة عائشة فى هذا النص من الموضع نفسه (فيكتب من (الإنجيل) بالعبرانية ما شاء الله)، فنحن جميعاً نعلم أن النصارى يقرون بأربعة أناجيل معا، منها ثلاثة كتبت أصولها باليونانية هى أناجيل: مرقس، ولوقا، ويوحنا، وواحد فقط كان له أصل عبرانى هو المسمى إنجيل (متى)، ثم ترجمه أنصار بولس إلى اليونانية ترجمة معدلة تلائم عقائدهم فى المسيح على ما قال به بولس، وأعرضوا عن الأصل العبرانى وتجاهلوه، بينما ظل هذا الأصل فى أيدى النصارى المتهودين الذين أنكروا عقيدة بولس فى تأليه المسيح، وقالوا بأنه مجرد نبى مرسل، وأن رسالته تكملة وتفسير لرسالة موسى عليه السلام وأنبياء التوراة، ومن ثمة اعتمدوا التوراة والإنجيل معاً.

وقد حكى عنهم ايريناوس Irenaeus المتوفى أوائل القرن الثالث أنهم كانوا (يستخدمون إنجيل (متى) فقط، ويرفضون بولس الرسول، ويقولون عنه إنه مرتد عن الناموس) [1].

وهذا هو ما حكاه عنهم أيضاً أو سابيوس القيصرى المتوفى سنة ٣٤٠م حيث ذكر أنهم (استعملوا فقط ما يدعى (إنجيل العبرانيين)، ولم يبالوا كثيراً بالأسفار الأخرى) [2].

١- متى المسكين: التقليد - ص٩٢.

٢- ك ٣ : ف ٢٧.

ويذكر جيروم المتوفى حوالى سنة ٤٢٠م ما يؤكد أن إنجيل العبرانيين هو إنجيل متى العبرانى الحقيقى:

يقول جيروم: (فى إنجيل (العبرانيين) الذى اعتاد الناصريون أن يقرأوه) [١].

ثم يقول: (فى الإنجيل الذى يستعمله الناصريون والأبيونيون، والذى ترجمناه مؤخراً من (العبرانية) إلى اليونانية، والذى يعتبره معظم الناس إنجيل (متى الحقيقى) [٢].

وقد حكى ابن كبر المتوفى سنة ١٣٢٤م عن هؤلاء النصارى المتهودين أنهم كانوا (يقولون بأن التوراة أحق بأن تقرأ على الجماعة، وبعد الكتب كلها يقرأ من الإنجيل) [٣].

فهؤلاء النصارى المتهودين يقرون إذن:

بإنجيل واحد (فقط) هو إنجيل (العبرانيين)، أو بمعنى آخر الأصل (العبرانى) لإنجيل متى.

ويقرون أيضاً بالتوراة مع ذلك الإنجيل، وأداء الشعائر والطقوس على ما جاء فى التوراة: (فلا تعطل السنن التى فى التوراة، ولا وصاياها كلها، ولا يعمل الفصح إلا كما أمر به فيها) [٤].

وعلى ذلك أقروا بأن الأنجيل لم ينسخ التوراة (واحتجوا فى ذلك فقالوا: إن الكتب الحديثة - (أى الإنجيل) - ليست مضادة للعتيقة - (أى التوراة) -) [٥].

واضح إذن ذلك الارتباط التام والتلاحم الوثيق بين إنجيل متى العبرانى وبين التوراة فى عقائد النصارى المتهودين.

وأصول التوراة إنما هى فى (العبرانية).

١- Gospel Parallels: edit. By:Burton H. Throckmorton, p. 22, 151, 178, 181, 184.

٢- Ibid.p . 151, 160.

٣- مصباح الظلمة: جـ١ ص٣٣.

٤، ٥- نفس الموضع.

وأصول إنجيل النصارى المتهودين هو أيضاً فى (العبرانية) سواء باسم (متى) أو (العبرانيين) أو (الناصريين) أو (الأبيونيين).

وإذن ففى العبرانية يقوم كل أصول عقيدة النصارى المتهودين من توراة وإنجيل، بمختلف شيعهم وأسمائهم..

وكل تلك الشواهد مجتمعة قاطعة بكون (ورقة بن نوفل) من النصارى المتهودين على وفاق ما تؤديه هذه الرواية العجيبة لحديث السيدة عائشة..

وعلى ذلك يتضح أن ورقة إنما كان يترجم إنجيل (متى) العبرانى إلى العربية لصالح النصارى المتهودين.

لكن.. ما الذى تعنيه السيدة عائشة فى هذا الحديث بلفظ (الإنجيل)؟

أتعنى به ذلك المعنى العلمى والاصطلاحى الضيق المشار به إلى ما كتبه بعض تلامذة المسيح عن سيرته وتعاليمه تحت اسم (الإنجيل) بما يقابل لفظ Gospel فى الإنجليزية؟

أم تراها كانت تعنى التوراة والإنجيل معا بما ذكرته فى هذا الخبر وأنها استخدمت لفظ الإنجيل على سبيل التوسع أو التجوز بتسمية الكل بأهم أجزائه، أو ما يتعلق القصد به؟

نعتقد أنها كانت تعنى هذا المعنى الأخير.

ولعلها كانت تجارى فى ذلك عرفاً شائعاً، أو تقليداً متبعاً بين نصارى العرب، أو فريق منهم، فى ذلك الزمن، لا سيما وأننا قد علمنا أن المعتمدين لإنجيل متى العبرانى هم النصارى المتهودون الذين كانوا يقيمون التوراة والإنجيل معاً، فلا عجب إذا أطلقوا لفظ (الإنجيل) على كتاب يستجمع التوراة، أو بعض أسفارها، مع إنجيلهم الوحيد المعتمد منهم، وذلك تمييزاً لكتابهم وعقيدتهم من كتاب وعقيدة اليهود المنكرين للمسيح، والرافضين للإنجيل.

وهكذا نخلص من حديث السيدة عائشة بشأن ورقة والإنجيل، فى رواياته الأربع التى جاء بها البخارى، ووافقه مسلم فى بعض صورها، إلى القطع بترجمة الإنجيل إلى

العربية قبل بعثة محمد ﷺ، سواء كانت تلك الترجمة من عمل ورقة أو من عمل غيره، ومع الإنجيل كانت التوراة أيضاً، وإلا ما قامت دعائم مذهب النصارى المتهودين ومنهم ورقة!

ولا حاجة إلى الاعتراض على ذلك بأن الذى يستفاد من هذا التحليل هو ترجمة إنجيل متى العبرانى فقط إلى العربية، ولا يلزم مثله بشأن الأناجيل الأخرى، فالاعتراض مدفوع بكون هؤلاء النصارى المتهودين المعتمدين لإنجيل متى العبرانى هم أقل فئات النصارى عدداً، وأكثرهم عرضة للمطاردة والاضطهاد من الكنيسة والحكام، ومن سائر نصارى الطوائف المخالفة لهم، مع ما كانوا يعانون من عوز وبؤس.

فإذا كان هؤلاء رغم كل ذلك يترجمون الإنجيل والتوراة إلى العربية، فمن باب أولى يصح الحكم ذاته على غيرهم من نصارى العرب، وعلى فرقهم وطوائفهم ذات الكثرة والغلبة، الذين تعضدهم الكنيسة، ويحميهم السلطان ويملكون من الثروة والغنى، ومن الجاه والنفوذ، ما لم يكن للمتهودين، وبأيديهم من الوسائل والإمكانات لترجمة إنجيلهم إلى العربية ما لا يخطر على بال عاقل أن ينكره..

ولا وجه للاحتجاج بأن لو كان ذلك لوقفنا على شئ من تلك الترجمات أو مخلفات منها، أو آثار لها، لأننا نقول إن حديث السيدة عائشة وهو بالقطع منقول عن الرسول ﷺ، أى هو فى جملته يرتفع إلى أوثق سند يقربه مسلم، قد أكد وجود ترجمة عربية للإنجيل، سواء من طريق ورقة أو من طريق غيره، وبصرف النظر عن تعيين ذلك الإنجيل، فالدفع لهذا الخبر دفع لحديث الرسول ﷺ، وهو تكذيب لمن لا يمكن تكذيبه خاصة فى هذا الشأن.

أما إن قيل بتعيين الإنجيل الذى ورد بشأنه الحديث، وأنه إنجيل متى العبرانى على ما قررناه نحن، وأن الإنكار متعلق بغيره، فإننا نجيب بأنه إذا كان الذى جاء بشأنه الخبر، وهو إنجيل متى العبرانى، وشأن ورقة معه، لم يصلنا منه أثر، أليس من باب أولى أن يمتنع، أو يتعذر ذلك بشان ما لم يأت به الخبر الصريح، وإن دل عليه الاستدلال الصحيح؟!

الفصل الثاني

ترجمة التوراة والإنجيل فى زمن البعثة

لا يمكن لنا أن نتصور اليهود والنصارى فى بلاد العرب يرون رجلاً عربياً يأتى قومه بدين جديد يختلف عن ديانتيهما، ويستدرك على كتابيهما، ويكفر بعض معتقداتهما، ويرمى الفريقين بالتحريف، ثم لا يتحرك هؤلاء وهؤلاء، رغم ذلك، إلى ترجمة كتابيهما التوراة والإنجيل إلى العربية، أو ترجمة نصوص منهما، إن لم يكن ذلك متحققاً من قبل، لمدافعة هذا الدين الجديد، وتثبيت جمهورهم من أهل الكتاب بما يضعونه بين أيديهم من نصوص مقدسة تتلاءم مع طبيعة الموقف، وتتوافر فيها عناصر معينة تجعلهم قادرين على المواجهة والتصدى عند الاقتضاء، خاصة وهم يزعمون لهم أن ما جاء به محمد هو استملاء مما فى كتبهم، ولم يكفهم ذلك حتى روجوه بين الوثنيين أيضاً، وأومأ إليه القرآن: (وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً) [1].

كما تواترت الأخبار أن الوثنيين العرب كانوا فى مواجهتهم لمحمد ﷺ يستفتون أهل الكتاب بشأنه، وخاصة اليهود بدعوى أنهم أهل الكتاب (الأول) وكان هؤلاء يلقنونهم ما يدافعونه به، أو يأخذونه عليه.

وقد تعددت الشواهد، وتكاثرت، فى الكتب الإسلامية على ترجمة نصوص من التوراة والإنجيل فى زمن البعثة، وجاءت بشأنها آثار صحيحة فى كتب السيرة، وكتب الحديث المعتمدة.

١- الفرقان: ٥.

على أننا ينبغى أن نقرر حقيقة هامة بشأن هذه النصوص التى قلنا إنها ترجمت زمن البعثة أو قبلها، أو بعد الرسول ﷺ حتى منتصف القرن الثانى للهجرة تقريباً، والتى يجب أن يضعها كل ناظر فى هذا الأمر نصب عينيه دائماً، ألا وهى أن الترجمة التى نعنيها إنما هى ترجمة بالمعنى لا بالنص الحرفى، وذلك كما بيناه من قبل بصدد الشاهد القرآنى الذى ألمح إلى هذه الحقيقة فيما ذكره بشأن اليهود، وما كانوا يقترفونه من تحريف من خلال هذا المنهج فى ترجمة النصوص، حيث قال:

(ومنهم آميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، وإن هم إلا يظنون.

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون) [1].

وقد كان من الموافقات العجيبة أن يورد البخارى حديثاً لأبى هريرة يقرر هذه الحقيقة، ويؤكد عليها، وذلك حيث روى بسنده إلى يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة أنه قال: (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، و(يفسرونها) بالعربية لأهل الإسلام...) [2].

فقول أبى هريرة عن أهل الكتاب - وهو يعنى اليهود بالتحديد - إنهم كانوا (يفسرون) التوراة بالعربية لا يريد به ما نعرفه اليوم من معنى (التفسير Commentary) الذى هو عبارة عن الشرح للنص، والمناقشة لمضمونه والتعليق عليه، وإنما يعنى به الترجمة لمعنى النص Interpretation حيث لا يلتزم المترجم بالأصل الحرفى لأسباب ربما كان منها صعوبة المطابقة الدقيقة بين الترجمة والأصل، أو تجنبا لما قد يصير إليه النص فى اللغة المنقول إليها من غموض وإبهام فى المعنى، أو ركاكة فى التعبير، أو عجز عن نقل مؤثرات وجدانية معينة.

والواقع أن الترجمة بالمعنى، والتى ألمح إليها أبو هريرة، كانت هى فعلاً الغالبة على ترجمة الكتب المقدسة قبل الإسلام عند اليهود والنصارى ليس فقط فى بلاد العرب،

١- البقرة: ٧٨ - ٧٩.

٢- البخارى: كتاب الاعتصام، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ.

بل قبل ذلك عندما نقلوا كتبهم من العبرانية إلى اليونانية:

فالترجمة اليونانية للتوراة فى القرن الثالث قبل الميلاد، والتى شهرت باسم الترجمة السبعينية Septuagint رغم ما نوهوا به آنذاك من امتياز تلك الترجمة ودقتها، إلا أنها كانت فى الواقع ترجمة بالمعنى لا بالنص، واستخدم المؤرخون فى الإشارة إليها اللفظ Interpretation إيماء إلى هذه الدلالة.

ومثل ذلك يقال أيضاً بشأن إنجيل (متى) العبرانى عندما ترجمه أنصار بولس إلى اليونانية ترجمة (معدلة) توافق مذهبهم، كان أيضاً ترجمة بالمعنى لا بالنص، وهو ما أتاح لهم التصرف فى سياقه، وحمله على ما يوافق منازعهم، ومن ثمّة استخدم المؤرخون فى الإشارة إلى تلك الترجمة نفس اللفظ المذكور.

هناك إذن تفرقة يجب مراعاتها جيداً عند الحديث عن ترجمة النصوص المقدسة قبل الإسلام، أو فى العصر الأول سواء فى زمن النبى ﷺ أو بعده، وهى أن تلك الترجمة كانت بالمعنى Interpretation ومن ثمة فهى تختلف عما نعنيه اليوم من معنى الترجمة Version or Translation التى تتحرى الأصل، وتلتزم به.

وهكذا يصبح حديث أبى هريرة شاهداً صحيحاً ودقيقاً على ترجمة التوراة زمن البعثة، وعلى تحديد نوع هذه الترجمة.

ونحن نعلم أن أبا هريرة لم يكن قارئاً ولا كاتباً، حسب شهادته عن نفسه وإن كان يخالجنا فى ذلك بعض الشك، لكنه على أية حال كان دقيقاً فى استيعاب ما يسمعه، أو يقال له، أمكنه من ذلك حرص شهر به فى طلب المعرفة، وذاكرة لاقطة لما كان يستشعر أنه من النوادر التى يتعذر عليه أن يجدها عند غير أهل الكتاب.

وعلى ما قدمنا نقول: إن الترجمة بالمعنى قد تقتضى أحياناً التصرف فى النص بنوع من التوسع أو الاختصار استجابة لدواع معينة، أو مراعاة للسياق، أو لصعوبة فى ضبط النص الأصلى، أو لمشقة فى التزامه من جهة المترجم، أو من يفسره له، أو نظراً إلى اعتبارات معينة يراعيها من يشرف على ذلك الأمر، أو يأذن به.

ولكن هذا لا يستلزم بالضرورة أن يقع التصرف فى كل النصوص، فقد يكون منها

ما هو صريح واضح يتيسر نقله دون تصرف بحال، فهنالك قد نجده منقولاً فعلاً على وجهه الذى يوافق أصله، أو نعرفه اليوم، من الأصول التى بين أيدينا، أو قريباً من ذلك على الأقل [1].

وبعد تقرير هذه الحقائق ننتقل إلى ما قيل عن ترجمة لنصوص من التوراة فى زمن الرسول ﷺ.

وأول شاهد نستدل به هو نفس حديث أبى هريرة:

فقد جاء هذا الحديث فى نصه الكامل هكذا: من رواية البخارى عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، و(يفسرونها) بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: (آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم) الآية).

والحديث بهذه الصيغة الواضحة الصريحة يقرر أمرين:

الأول: وقوع حدث معين. الثانى: الصدى، أو رد الفعل إزاء الحدث.

أما الحدث الذى وقع فهو ما ذكره أبو هريرة من ترجمة اليهود لنصوص من التوراة إلى العربية يقدمونها إلى المسلمين، وإلى المسلمين بالقصد والتحديد على قول أبى هريرة، فهو لا يشير إلى الأمر قبل الإسلام، بل فى زمن الإسلام ولأهل الإسلام.

أما صدى ذلك، ورد الفعل له، فقد تمثل فى موقف الرسول ﷺ عندما ووجه بذلك من المسلمين الذين عرفوا بتلك النصوص، واستفتوه بشأنها، وإذا به ينهاهم عن المناقشة والجدل بشأنها مع أهل الكتاب، ويأمرهم بالتفويض والتسليم.

وهذا الموقف من الرسول ﷺ حكيم متزن:

فهو لا يرى أن يحرم ذلك عليهم، وأهل الكتاب الذين يرددون هذه النصوص يهود قائمون معهم، محيطون بهم، مندسون بينهم، فلو حرمه وقعت البلبلة بين المسلمين، وانفتحت جبهة من الصراع لا يتيسر غلقها أو تجاهلها، خاصة والأمر متعمد من أهل الكتاب

١- سنرى أمثلة لنقل صحيح يؤكد هذه الحقيقة فى منقولات: عبد الله بن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه الصنعانى فيما يأتى بعد..

لشغله عن دعوته، واستنزاف طاقته فى صراعات جانبيه، ومسائل سطحية عارضة.

كذلك نراه لا يتصدى لاى نص من تلك النصوص، ولا يطلب إليهم أن يعرضوها عليه، وإنما يأمرهم بالتفويض والتسليم، إذ كان يتوجه بحديثه ذاك إلى الجمهور، والجمهور بطبيعته لا شأن له بالعلم والتحقيق، فلا يجوز منه الجدل والمناظرة فى قضايا الدين، وأمور العقيدة ومن ثمة فالحديث لا يتجه إلى أهل العلم من المحققين، وذوى الاختصاص، وإلا لم يقم من يذب عن الدين، ويوطد العقيدة ويكشف أباطيل المغرضين، من المخالفين فى الملة وأهل الزيغ والانحراف من عملائهم. وكل ذلك يوجب بطبيعة الحال التعرف على نصوصهم المقدسة، وكشف الحقيقة بشأنها، ووجوه الدس والتحريف التى وقعت فيها، وبيان الباطل والصحيح الذى يمكن دفعه أو قبوله على معيار المعتقد الصحيح.

وليس ببعيد أن يكون الرسول ﷺ ملوحاً بذلك إلى ما كان اليهود أنفسهم يعانون منه فى ضبط النص العبرانى لكتابهم، فنحن نعلم اليوم أن ضبط النص العبرانى للتوراة لم يتحقق على نحو مقبول قبل مطلع القرن السادس عشر للميلاد، إلى أن توجت الجهود بعد ذلك فى القرن السابع عشر بإخراج الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس فى سنة ١٦١١م والتى عرفت بترجمة الملك جيمس، وتعتبر أقرب الترجمات إلى الضبط للنص العبرانى المعتمد من القرن الثانى عشر، والذى ينسب إلى (بن آشر Ben Asher) ولا يزال العلماء حتى اليوم يعانون أيضاً فى ضبط النص العبرانى، وقراءته، خاصة بعد المكتشفات المتعددة فى العصر الحاضر لمخطوطات وأصول اقتضت ضرورة مراجعة كل الترجمات السابقة، ووضع ترجمات جديدة للكتاب المقدس، وللنص التوراتى بالتحديد.

وإذا كان هذا هو الحال بشأن النص العبرانى للتوراة حتى اليوم ونحن فى أزهى عصور الثقافة الإنسانية، فكيف يكون الحال فى مجتمع بدائى متخلف يسوده الجهل، وتحاصره الوثنية، ويتحكم فيه ذوو الأهواء؟!

على أية حال فإن حديث أبى هريرة يقوم شاهداً قوياً على توكيد القول بترجمة نصوص من التوراة إلى العربية فى زمن البعثة المحمدية.

أما الشاهد الثانى على ذلك فهو الخبر المشهور عن عمر بن الخطاب عندما انتسخ نسخة من صحف أهل الكتاب، فاستنكر الرسول ﷺ ذلك منه، وعنفه عليه:

روى الإمام أحمد، وغيره، من حديث جابر بن عبد الله: (أن عمر بن الخطاب اتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به. والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى) [1].

وقد روى المحدثون من القرائن والأخبار ما يشهد لهذا الأثر من أمر عمر:

فقد ذكروا قصة رجل عربى من قبيلة (عبد القيس) كان مسكنه (بالسوس) استدعاه عمر، وأخذ يؤنبه ويعنفه، ثم ضربه ثلاثاً:

(فقال له الرجل: مالى يا امير المؤمنين؟

(قال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال؟

(قال: مرنى بأمرك أتبعه!

(قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه، ولا تقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغنى أنك قرأته، أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنك عقوبة!

(ثم قال: اجلس، فجلس بين يديه، فقال:

(انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم، فقال لى رسول الله ﷺ: ما هذا فى يدك يا عمر؟

(قلت: يا رسول الله، كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا!

(فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم؟ السلاح! السلاح!

١- د. حسين الذهبى: التفسير والمفسرون: جـ١ ص١٧٢.

(فجاءوا، حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال:

(يا أيها الناس: إنى قد أوتيت جوامع الكلم، وخواتيمه، واختصر لى اختصاراً، ولقد جئتكم بها بيضاء نقية، فلا تهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون)!

(قال عمر: فقمت، فقلت: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً) [١].

كما ذكر المحدثون خبراً آخر يوافق ما جاء عن عمر فيما سبق بشأن الصحيفة، فقد رووا: (أن رجلين كانا بحمص فى خلافة عمر، فأرسل إليهما فيمن أرسل إليهم من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا من (اليهود) شيئاً فى صحيفة، فاخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين عمر. فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتاب، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه ونترك؟

(فقال: سأحدثكم...) ثم ذكر قصته لما كتب شيئاً (أعجبه) من كلام اليهود، وقرأه عليه - أى على الرسول ﷺ - فغضب الرسول ﷺ، وصار يمحوه بريقه ويقول: لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هوكوا وتهوكوا، حتى محا آخره، حرفاً حرفاً.

(ثم قال عمر: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة!

(قال: لا والله ما نكتب منه شيئاً.

(ثم خرجا بصحيفتهما، فحفرا لها، وعمقا فى الحفر، ودفناها، فكان آخر العهد بها) [٢].

وواضح من هذه الأخبار بشأن عمر وصحيفته أنه كانت هنالك ترجمة عربية لنصوص من التوراة فى زمن الرسول ﷺ، وأنه كان بمكنة أى مسلم أن يحصل على نسخة لتلك النصوص أو بعضها.

ولا يتضح من كلام عمر أنه كانت هنالك أدنى صعوبة فى الحصول على شئ من تلك الصحف التوراتية سواء بالنسبة له أو لغيره.

١- أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير - ط المجلس الأعلى - ص١٥٤ - ١٥٥.

٢- نفس المرجع - ص١٥٩.

وليس بمكنة أحد أن يزعم أن عمر بن الخطاب كان يعرف الآرامية أو العبرانية ليقرأ بها التوراة، أو أن النبى ﷺ نفسه كان يعرف إحداهما، حتى يستمع إليه ويعقلها عنه، وهو يتلوها عليه. وإنما دلالة هذه الأخبار - حتى لو كانت ضعيفة أو مشكوكاً فى صحتها - أنه كانت هنالك ترجمة عربية لنصوص من التوراة، وأنه كان هنالك من اليهود من باستطاعته أن يترجم من التوراة إلى العربية صحفاً لمن يطلبها فى زمن البعثة، حيث يتوافر الدافع إلى مقاومة محمد ﷺ، وإجهاض دعوته، وذلك بترويج مثل هذه الصحف بين العرب والمسلمين كسبيل للتشويش عليه، والإثارة ضده، وإيهام السذج والدهماء بأنه يقلد توراة اليهود، ويستملى من كتبهم، وانه ليس من ذلك الأمر، أمر الوحى والنبوة، على ما يقول.

وليس بمستبعد أن يتوهم المرء أن عمر - إذا صحت الأخبار - طلب ذلك من نفسه ابتغاء مزيد من علم، أو تلمسا لبينة أو حجة لصالح دينه ينتفع بها المسلمون.

على أن هذا لا يمنع أن يكون هنالك منهم من هيأ له أن لو اطلع على بعض صحفهم لوجد فيها ما يوافق وحى محمد ﷺ، وينفع المسلمين استدراجاً له، فمن ثمة بدا له أن فى ذلك خيراً ومصلحة، ففعل ما فعل، وكان ما كان، وسلك بحسن نية، بينما هم يمكرون به، عامدين إلى ضرب محمد ﷺ بأقرب خلصائه، وأشد أتباعه، ابتغاء أن يوقعوا بينهما، ويسلخوه من الإسلام، أو يجعلوه رأساً لعقيدة يطمسون بها دين محمد ﷺ، كما فعلوا ذلك من بعد بأولئك المتنبئين الكذبة كمسيلمة وغيره، لولا ما كان من حكمة النبى ﷺ، وعمق إيمان عمر، ووعى المسلمين.

ويجمع حديث أبى هريرة الذى أسلفناه من قبل، إلى قصة عمر والصحيفة، يلتئم دليل حاسم قوى على ترجمة عربية للتوراة فى زمن الرسول ﷺ، خاصة وقد توافر فى كلا الشهادتين من أبى هريرة وعمر وقوع الحدث، ثم رجعه وصداه من جانب الرسول ﷺ فليس فيهما شهادة مجردة من مناسبتها، أو تقوم على ظن وتخمين، حتى تحتمل هذا الرأى أو نقيضه.

الفصل الثالث

ترجمة التوراة والإنجيل فى زمن الصحابة والتابعين

أما عن ترجمة التوراة والإنجيل فى تلك الفترة التى أعقبت وفاة رسول الله ﷺ والتى آل الأمر فيها إلى الصحابة والتابعين فالشواهد على ذلك كثيرة قد تستعصى على التقدير الصحيح خاصة بعد ضياع مصادرها من المؤلفات الإسلامية والعربية فى القرون الأولى للإسلام، من ذلك مثلاً بعض جوامع الحديث النبوى، وبعض التفاسير القرآنية، وبعض كتب السيرة النبوية ومنها كتاب السيرة الذى كتبه محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥١هـ، وقد كتب السيرة مرتين على ما يذكر المؤرخون، الأولى كانت مطولة، فلما قدمها للخليفة المنصور استطالها، وطلب إليه ان يختصرها، فاختصرها فى نسخة أخرى، وللاسف لم تصلنا أى من النسختين، وإن بقيت فى كتب المفسرين والمؤرخين بعض منقولات تدل على ذلك الأصل المفقود. وكل ما بقى بعد ذلك من سيرة ابن اسحاق هو ذلك المختصر الذى قام به ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ، واكتفى فيه ببعض أخبار الرسول ﷺ، دون أن يعرض لما كان في الأصل عن قصة الخليقة، وتاريخ الأنبياء، والإسرائيليات الضخمة التى نقلها ابن اسحاق واعتمد على أصحها فى رأيه فى تأليف كتابه، ومنها ما كان مترجماً فى زمنه، أو قبل زمنه.

ومع ذلك فالشواهد على وفرة النصوص التوراتية المترجمة إلى العربية فى زمن الصحابة والتابعين كثيرة ومتنوعة، نتمنى لو يتصدى لجمعها ودراستها بعض الباحثين، مضافاً إليها بعض نصوص نادرة من أسفار إسرائيلية منحولة، مع نصوص من الأناجيل، خاصة تلك التى لا يعتمدها المسيحيون، وتلك النصوص ذات أهمية ضخمة

فى تحقيق التراث الدينى والثقافى لأصحاب الديانات الكتابية الثلاث، وبجمعها ودراستها يمكن الإسهام فى تحقيق بعض النصوص الغريبة والغامضة التى نقابلها سواء فى الكتب الإسلامية، أو المسيحية، أو اليهودية.

ثم نعرض الآن لبعض نصوص من التوراة راجت بين الصحابة، ووصلنا الخبر عنها:

من ذلك مثلاً ما ذكره الحاكم فى المستدرك بسنده إلى السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ - أنها قالت: (إن رسول الله ﷺ مكتوب فى (الإنجيل) لا فَظّ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة مثلها، بل يعفو ويصفح).

هذا الحديث الذى رواه الحاكم على شرط الصحيحين البخارى ومسلم يتضمن نصاً منقولاً من التوراة يستلزم بالضرورة اطلاع السيدة عائشة على ترجمة عربية لأسفار التوراة، أو بعضها، أو أنها تلقنت النص استظهاراً عن طرف آخر قرأه عليها، أو لقنها إياه، أو ترجمه لها.

على أننا نرى قرينة فى الحديث تدل على أنها قرأته فى ترجمة عربية لبعض نصوص التورة، فقد ذكرت أن ذلك مكتوب فى (الإنجيل)، ونحن نعلم على ما ذكرنا من قبل أن لفظ الإنجيل هنا لا يقصد به مجرد تلك الأسفار التى كتبها بعض تلامذة المسيح أو أتباعه عن سيرته وتعاليمه، كما يقتضى ذلك المصطلح العلمى الضيق لهذا اللفظ، وإنما تعنى بلفظ (الإنجيل) هنا مجموعة من صحائف التوراة والإنجيل نسقت معا لاستعمال النصارى العرب، أو بعض شيعهم قبل محمد ﷺ، أو فى زمن البعثة، وأطلقوا على مجموعتهم تلك لفظ (الإنجيل) تسمية لها بأهم أجزائها، من قبيل التجوز أو التوسع، تمييزاً لكتابهم الذى يجمع بين التوراة والإنجيل معاً من كتاب اليهود الذين لا يقرون بالإنجيل، ولا يؤمنون بصاحب الإنجيل.

ومن ثم فالسيدة عائشة تتابع تقليداً شائعاً بتلك التسمية، ولم تخطئ بذلك على هذا المعنى.

على أن القرآن قد جاء مميزاً للتوراة من الإنجيل:

وراعى الصحابة أيضاً هذا التمييز بين الكتابين عملاً بمنهج القرآن.

فكيف فات ذلك السيدة عائشة؟ لعله لم يغب عن وعيها ذلك، ولكن اتبعت ظاهر الخبر.

هنا إذن يمكن أن نقول باحتمال أن كانت عندها تلك النسخة النصرانية، ولعلها أيضاً كانت من ترجمة ورقة بن نوفل أو من نقل عنهم، على ما قد يوهم به جمع هذا الخبر إلى ما ذكرناه من قبل من حديثها عن ورقة والإنجيل.

وإنما النص الذى ذكرته هو ترجمة مجملة لصدر الإصحاح الثانى والأربعين من سفر إشعياء، أحد أنبياء التوراة، كان قبل الإنجيل، وصاحب الإنجيل، بحوالى ثمانية قرون.

على أن هذا النص قد نقل أيضاً عن الصحابى الجليل عبد الله ابن سلام، حبر اليهود الذى أسلم، وأثنى عليه الرسول ﷺ، وشهد له القرآن على ما يذكر بعض الرواة:

فقد ذكر ابن سعد فى طبقاته أن عبد الله بن سلام سئل عن صفة الرسول ﷺ فى التوراة [١] فقال: (إن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة: (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً)، وحرزاً للأميين. أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل. ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخب بالأسواق، ولا يجزى السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح. ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المعوجة، بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فيفتح به أعينا عميا، وآذاناً صما و(قلوباً) غلفا) [٢].

وذكر الذين نقلوا هذا النص عن ابن سلام أنهم عرضوه بعد ذلك على كعب الأحبار الذى أسلم فى عهد عمر فقال: (صدق عبد الله بن سلام)، إلا أنها - بلسانهم - أعينا عمومين، وآذانا صمومين، وقلوبا غلوفين) [٣].

١- يجب التنبيه إلى أن النص التوراتى من سفر إشعياء الذى حمله المسلمون على أنه بشارة بنبيهم قد اقتبسه إنجيل (متى) فى الإصحاح الثانى عشر (١٨ - ٢١) ولكنه حرف عن أصله بما لا يتفق مع مقصد السيدة عائشة وسائر المسلمين، لذلك يمتنع تماماً أن تكون قد اقتبسته من ترجمة عربية لإنجيل متى كما نعرفه فى صورته الحالية، وإنما من ترجمة عربية عن أصله العبرانى الصحيح.

٢- جـ١ ص٣٦٠ - ٣٦١.

٣- الطبقات: جـ١ ص٣٦١.

على أن ما استدرك به كعب ينبغى أن يستلفت نظرنا:

فما ذكره عبد الله بن سلام فى تلك الألفاظ التى علق عليها كعب صحيح تماماً فى لغة العرب.

كذلك فإن ما استدرك به كعب هو أيضاً من لغة العرب، وليس من العبرانية كما سبق إلى ظنون بعض الواهمين، بل تحدث كعب عن لسان قومه الذى نشأ عليه وتعلم به.

فهل نفهم من تعقيب كعب، أو تعليقه، أنه كانت هنالك أيضاً ترجمة عربية للتوراة يستعملها عرب اليمن ويهودها غير النسخة أو الترجمة التى نقل عنها عبد الله بن سلام؟

إن تعليق كعب يوحى بوجود صورتين عربيتين لهذا النص إحداهما تلك التى ذكرها ابن سلام، والأخرى تلك التى يعرفها كعب:

فقد نقلوا أيضاً عن كعب أنه سئل عن صفة الرسول ﷺ فى التوراة فقال:

(إنا نجد فى التوراة (محمد) النبى المختار، لا فَظّ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر) [(١)].

ونلاحظ أن ما نقله كعب من صفة الرسول ﷺ مطابق بحرفه لجزء مما ذكره ابن سلام، بينما لم يعرض لما قبل ذلك أو بعده مما عرض له الحبر الجليل.

كما نلاحظ أيضاً أن نص السيدة عائشة ونص كعب متطابقان تماماً حجماً ومعنى.

وفى نفس الوقت نلاحظ أن الصحابى عبد الله بن عمرو بن العاص يسال عن صفة الرسول ﷺ فى التوراة، فإذا به يقول: (أجل والله، إنه موصوف فى التوراة بصفته فى القرآن:

(يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً، ومبشراً ونذيراً)، وهى فى التوراة (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً)، وحرزاً للأميين.

١- جـ١ ص٣٦٠، ص٣٦١.

(أنت عبدى، ورسولى، سميتك المتوكل.

(ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر.

(ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا:لا إله إلا الله.

(فيفتح به أعينا عميا، وآذاناً صما، وقلوبا غلفا، بأن يقولوا: لا إله إلا الله) [1].

قال ابن سعد: (قال عطاء فى حديث فليح: ثم لقيت كعباً، فسألته، فما اختلفا فى حرف، إلا أن كعباً يقول بلغته: (أعينا عمومى، وآذانا صمومى، وقلوباً غلوفى) [2].

ونلاحظ التطابق التام هنا لروايتى عبد الله بن سلام، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

ترى: أكان ابن عمرو يأخذ عن ابن سلام فى ذلك؟

أم ترى: كانت هنالك ترجمة عربية ينقل منها الصحابيان؟

نحن نعلم أن عبد الله بن عمرو كان ولوعاً بعلوم أهل الكتاب، وقراءة التوراة وجاء عنه خبر فى ذلك من طريق واهب الغفارى عنه أنه قال: (رأيت فيما يرى النائم كأن فى إحدى يدى عسلاً، وفى الأخرى سمناً، وأنا ألعقهما، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن، وكان يقرأهما) [3].

فهذا شاهد إذن بإقررا عبد الله نفسه أنه كان يقرأ التوراة فى زمن الرسول ﷺ.

لكن، بأية لغة كان يقرأها أبالعبرانية، أم السريانية، أم العربية؟

لا علم عندنا انه كان يعرف العبرانية.

لكننا نعلم من أكثر من مصدر أنه كان يقرأ بالسريانية، ذكر ذلك ابن سعد وابن قتيبة وغيرهما.

١- نفس الموضع.

٢- الموضع السابق.

٣- ابن حجر: الإصابة.

كما أننا نعلم أيضاً أنه فى معركة اليرموك فى زمن عمر بن الخطاب وكانت قد بدأت فى زمن أبى بكر، أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب كان يحدث من كتبهما.

فلو اعتبرنا هذه الكتب التى غنمها من نصارى الشام، أو من الروم، بالسرانية، وكانت التوراة والإنجيل مترجمين فعلاً فى تلك اللغة منذ قرون، فهل يكون هذا النص الذى ذكره عن صفة الرسول ﷺ من ترجمته هو، أم من ترجمة عربية فى تلك الكتب، أم من ترجمة عربية معلومة عند بنى قومه، أم نقلاً عن عبد الله بن سلام؟

كل الفروض ساقطة إلا هذا الفرض الأخير!

فالنصان متطابقان تماماً، حتى فى تلك الآية القرآنية التى استهل بها ابن سلام ترجمته نقلها ابن عمرو، وزعم أنها فى التوراة مستكملة بذلك الجزء (وحرزا للأميين)، وليس الأمر على ما زعم.

ولو كان النص من ترجمته لما تطابق هذا التطابق المطلق، ولا وجد فى الأصل تلك الآية القرآنية التى زعم أنها فيه.

كذلك يستحيل أن يكون من ترجمة عربية لأحد من غير المسلمين لنفس السبب.

لا يبقى إذن إلا أنه نقل عن عبد الله بن سلام دون أن يسند ذلك إليه.

وهنا قد نتنبه إلى أمر ينبغى ألا يفوتنا، وهو أنه ليس ببعيد أن يكون المسلمون من أهل الكتاب قد نشطوا بدافع من حبهم لدينهم. وغيرتهم عليه إلى أن يضعوا ترجمة لبعض نصوص من التوراة توسموا فيها الشهادة لدينهم الجديد، وكان من هؤلاء عبد الله بن سلام، وربما كان رائدهم فى ذلك الأمر، فتناقل المسلمون عنه هذا الأثر وغيره، ومنهم صاحبنا لاعق السمن والعسل!

ومن الطبيعى أن تتصل بعد ذلك حركة الترجمة لصحف أهل الكتاب فى حياة الصحابة والتابعين، سواء كان ذلك بجهود نفر من المسلمين، أو بجهود أهل الكتاب أنفسهم.

وقد سبق أن رأينا عمر بن الخطاب يحكى لرجال استقدمهم إليه وهو خليفة عما

كان منه بشأن صحيفة من صحائف التوراة انتسخها، وقدم بها على الرسول ﷺ، فلامه على ذلك، واستعظم الحدث!

فهؤلاء الرجال الذين استقدمهم عمرو حكى لهم قصته، كانوا هم أيضاً قد انتسخوا صحفاً من التوراة، وتعلقوا بها فلما بلغه الخبر، أراد أن يقضى فى أمرهم بنفسه، فاستحضرهم إليه واستتابهم على يديه، وتوعدهم لو عادوا إلى ما ينهاهم عنه.

وكان ممن استقدمهم عمر رجل ذكر الرواة أنه كان (من (قبيلة) (عبد القيس) مسكنه (بالسوس).

(فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟

(قال: نعم.

(قال: وأنت النازل (بالسوس)؟

(قال: نعم.

(فضربه بقناة معه، فقال الرجل: مالى يا أمير المؤمنين؟...

(قال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال؟

(قال: مرنى بأمرك أتبعه.

(قال: انطلق، فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا (تقرأه)، ولا (تقرئه) أحداً من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك (قرأته) أو (أقرأته) أحداً من الناس لأنهكنك عقوبة) [1].

والخبر على هذا النحو كاف تماماً للدلالة الواضحة على انتشار ترجمة عربية لصحائف من التوراة فى أمصار المسلمين زمن خلافة عمر، ومنها بلاد فارس، حيث تقع تلك البلدة المسماة (السوس) والتى استوطن بها هذا العربي المسلم الذى انتسخ سفر دانيال، وهو بالطبع ينتسخه عن ترجمة عربية، إذ لا خبر ينم عن خلاف ذلك.

١- أبو شهبة: لإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ط المجلس الأعلى ص١٥٤.

على أن الأمر يستدعى النظر بشأن هذا الخبر، وما على شاكلته:

فعمر الخليفة الذى تدين لسلطانه بلاد العرب، وبلاد فارس، وبلاد الشام، هو الذى يستقدم ذلك الرجل الذى تهمته فى ظاهر الخبر أنه انتسخ سفر دانيال، فكيف كان ذلك، وللخليفة أمراؤه وولاته على تلك الأمصار وهم يكفونه هذا الأمر، وينوبون عنه فى فرضه وإقراره؟

بل الأعجب من ذلك كيف بلغ الخليفة نفسه خبر هذا الرجل، أو خبر غيره، بشأن نسخه لكتاب من كتب أهل الكتاب، وهو أمر غريب أن يقع رد فعله هكذا من جانب عمر أو جانب غيره، مع أنه لم يكن هنالك من تعليم أو أمر من الخليفة، أو ولاته بتحريم ذلك على المسلمين؟

لكننا قد نستطيع أن نتعرف على خلفية الخبر من أمر الخليفة لذلك الرجل بقوله: (.. لا تقرأه، ولا تقرئه) أحداً من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك (قرأته)، أو (أقرأته) أحداً من الناس لأنهكنك عقوبة)، فهذا يعنى أن الأمر لم يكن مجرد قراءة وتعرف من هذا الرجل على صحف التوراة، وإنما يعنى أنه شهر بإدمان ذلك، ثم شهر أيضاً بالدعوة إلى قراءة تلك الكتب، وقام هو بنفسه بإقرائها للناس، وهو أمر يصعب التغاضى بشأنه فى مجتمع مؤمن أيا كانت الحرية المكفولة لمواطنيه.

ومن ثم استشعر عمر الخطر فى عمل هذا الرجل، واشتم رائحة كريهة من جانبه اقتضت أن يستدعيه إليه، ويواجهه بسلطان الخلافة ليرتدع عن غيه، أو يتحمل ما يقضى به صالح المسلمين.

ويستلفت نظرنا فى هذا الخبر: أن الرجل من قبيلة (عبد القيس)، وأنه يسكن (السوس).

وأنه انتسخ (سفر دانيال).

وأن استجواب الخليفة له تركز على هذه النقاط الثلاث بالتعيين والتخصيص:

فأما بشأن قبيلته فقد كانت تدين بالنصرانية قبل الإسلام:

يقول الجاحظ فى ذلك: (.. فظهرت (النصرانية) فى ربيعة، فغلبت على تغلب، و(عبد القيس)، وأفناء بكر...) [1].

وأكد ذلك ابن حزم فقال: (إن ربيعة كلها، وبكراً، وتغلب، والنمر و(عبد القيس): كلهم نصارى) [2].

فقصة الرجل إذن فيها التفات إلى عقيدته السابقة، وملته المهجورة.

وأما بشأن (السوس) التى سكنها فقد ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان أكثر من بلدة بهذا الاسم، ثم قال عن التى نحن بصددها: (.. وفتحت الأهواز فى أيام عمر بن الخطاب على يد أبى موسى الأشعرى، وكان آخر ما فتح منها (السوس) فوجد بها موضعاً فيه جثة دانيال النبى، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فسأل المسلمين عن ذلك، فأخبروه أن بختنصر نقله إليها لما فتح بيت المقدس، وأنه مات هناك. فكان أهل تلك البلاد يستسقون بجثته إذا قحطوا، فأمر عمر بدفنه، فسكر نهرا، ثم حفر تحته، ودفنه فيه، وأجرى الماء عليه، فلا يدرى أين قبره إلى الآن).

ومن هذا يتضح لماذا سكن الرجل تلك البلدة المسماة (السوس)، ولماذا انتسخ كتاب (دانيال) يقرأه، ويقرئه للناس:

والنصارى يهتمون جداً بهذا المدعو (دانيال) وبكتابه الذى يروى فيه تلويحات وإشارات رامزة إلى مسيحهم، اقتبست منه (أناجيلهم)، كما اقتبس بعض عبارته من قبل مسيحهم الناصرى، على ما نرى من ذلك فى الإنجيل.

والنصارى أيضاً يستشفعون بمن يسمونهم القديسين وهم كالأولياء والصالحين عند المسلمين، ويتبركون بمخلفات جثثهم وآثارهم.

وإذن فهذا (القيسى) لم يكن مجرد قارئ لصحف التوراة، بل كان داعية إلى الانحراف عن دين المسلمين، والإغراء بالارتداد إلى الملة السابقة.

وهذا قد يكشف أيضاً عن نشاط النصارى واليهود فى تلك البقاع فى ترجمة صحف

١- رسائل الجاحظ - جـ٣ - الرد على النصارى ص٣١٣، ت هارون.

٢- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ديانات العرب، ص٤٩١ ت هارون.

من التوراة والإنجيل إلى العربية كوسائل يستعينون بها فى مناهضة الإسلام، ودفع المسلمين.

وما قيل بشأن هذا القيسى النصرانى الأصل، يقال مثله عن الرجلين اللذين استقدمهما الخليفة من حمص ببلاد الشام:

فلم يكن الأمر منهما لمجرد نظر واطلاع:

بل شهرا بذلك، وأدمنا عليه، ودعوا إليه، حتى تناقله الناس، وأدركه الوالى، وعرف به عمر.

وهما أيضاً قد اطلعا على ذلك فى نسخة عربية.

ولعلهما كانا من نصارى الشام قبل الإسلام، ثم تظاهرا به، ثم بدا لهما أن يمهدا للردة عنه بالدعوة إلى قراءة تلك الصحف التوراتية، وما ماثلها من صحف النصارى، والترويج لشأنها بين المسلمين.

وهكذا كانت بداية الإسرائيليات فى الإسلام فى زمن عمر:

ترجمة كتب أهل الكتاب إلى العربية.

والدعوة إلى قراءتها وانتساخها من طريق رجال كانوا من قبل من أهل الكتاب، ثم زعموا أنهم مسلمون!!

وإذا علمنا أن عمر قد توفى سنة ٢٣هـ الموازى لسنة ٦٤٥م، اتضح لنا مدى التبكير بترجمة صحف أهل الكتاب فى بلاد العرب، وفارس، والشام الأمر الذى كان يمثل زاداً كافياً، ورصيداً مذخوراً لصالح الإسرائيليات التى ستضرب الإسلام بعد ذلك ضربات نافذة، وإن لم تكن قاتلة.

على أن موت عمر بن الخطاب يمثل مرحلة حاسمة فى تقرير الموقف بين القرآن والإسرائيليات التى كانت قد بدأت تتلمس طريقها إلى الظهور بترويج تلك النصوص المترجمة من صحف أهل الكتاب، إذ ضعفت هيبة الخلافة، وغفلت عين الرقيب، وسقط بعض زعماء الصحابة والتابعين فريسة مخدوعة بمأثورات اليهود والمتهودين، وراحوا

يبثونها بدورهم بين المسلمين، منهم من كان يتعمد نسبتها إلى الرسول ﷺ، وهو يعلم أنها ليست له، ومنهم من زعمها له وهو لا يعلم، ومنهم من قال بها كمأثورات من القدماء، وكل ذلك أدى إلى الخلط والتشويش بين ما له أصل صحيح عن الرسول ﷺ، وما هو مكذوب عليه.

على أية حال: فقد نشطت الترجمة بعد وفاة عمر، وتطورت، واتصلت.

وكل ذلك كان يمثل بلا شك رصيداً متزايداً لصالح الإسرائيليات على ما ذكرنا.

وقد وجدنا فى الروايات عن عبد الله بن عباس نصوصاً صحيحة من أسفار موسى، ومن سفر التكوين بالتحديد، نلحظ منها أنه كانْ قد تخطى مرحلة الاطلاع السطحى على النص إلى دراسته، والتعرف على تفسيره، فيقرن النص بالتفسير على ما يقولون به، ولا يكاد يعدّل فيه، أو يعدل عنه، إلا عندما يظهر له منه تعارض صريح مع نص قرآنى يستعصى عليه إخضاعه للنص التوراتى، فيضطر راغماً إلى العدول.

وقد كان من أظهر تلك النصوص نص مترجم بتصرف مع بعض الاختصار للإصحاح الخامس من سفر التكوين عن مواليد آدم:

وقد ورد ذلك النص فى عدة مصادر نذكر منها طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى، وتاريخ ابن الأثير الذى نختار أن ننقله عنه، ونستكمل فقرته الأخيرة من الطبرى.

(قال ابن عباس - (ناقلاً عن سفر التكوين):

(ولد لشيث أنوش، وولد معه نفر كثير. وإليه أوصى شيث.

(ثم ولد لأنوش بن شيث ابنه قينان من أخته نعمة بنت شيث بعد مضى تسعين سنة من عمر أنوش. وولد معه نفر كثير. وإليه الوصية.

(وولد قينان مهلائيل، ونفرا كثيرا معه. وإليه الوصية.

(وولد مهلائيل يرد - وهو اليارد - ونفرا معه. وإليه الوصية.

(فولد يرد حنوخ، وهو إدريس النبى، ونفرا معه. وإليه الوصية.

(وولد حنوخ متوشلخ، ونفرا معه. وإليه الوصية [1].

(وولد متوشلخ لمك، ونفرا معه. وإليه الوصية.

(فولد لمك نوحاً، ......) [2].

هذا النص من سفر التكوين، مضافاً إليه نصوص أخرى من رواية ابن عباس لقصة الأبوين فى الجنة، وتغرير (الحية) بهما، وعواقب ذلك، إذا جمع بعضها إلى بعض، مع إسقاط الاستطرادات التى كان يلتفت فيها إلى النصوص القرآنية، تكفى أن تكون دليلاً قاطعاً على أنه قد قرأ سفر التكوين، واستظهر روايته فى ذلك تماماً، وأخذ وترك، على قدر علمه ونظره، ولا نحسب أنه كان يليق بمثله أن لا ينظر فى كتب أهل الكتاب للفحص والتحقيق، لكنه للأسف تورط وغاصت قدمه فى وحل المبطلين، على ما سنرى فى هذا الكتاب والكتب التى تتلوه.

وإذا صح أنه قرأ التوراة على ما ذكرنا، فقد قرأها إذن فى ترجمة عربية، إذ كان لا سبيل قط إلى الزعم بأنه عرف العبرانية أو الآرامية ليقرأ بهما. ولتكن تلك الترجمة إذن من عمل ابن سلام، أو كعب الأحبار، أو غيرهما من قبل أو من بعد فلا إشكال، إذ ليست القضية فى تحديد صاحب الترجمة، وإنما فى كون تلك الترجمة قائمة حاضرة، يستنسخ منها نسخة يطلع عليها، ويحتفظ بها لنفسه، كما أمكن لغيره من قبل أن يستنسخ صحيفة من التوراة ليطلع عليها لعله يزداد بها علماً إلى علمه، حسب قوله!

وإذا كان ما ذكرناه من أخبار الصحابة، ثم أخبار عمر أثناء خلافته مع بعض مسلمى الأمصار، بشأن الاطلاع على نصوص من التوراة، ثم هذا الذى ذكرناه فى مقابله من جانب عبد الله بن عباس عن نفس الأمر قد تم ولما ينتصف القرن الأول للهجرة فيما نعتقد، إذ كانت وفاة هذا فى سنة ٦٨هـ، وكان قد عمى، فلا ينبغى إذن أن نعجب إذا اضطرد الأمر بعد لك على أيدى التابعين، ومن بعدهم.

ومن شواهد ذلك هذا النص الذى نجده عند عكرمة مولى عبد الله بن عباس،

١- ابن الاثير: الكامل جـ١ ص٥٤ - ٥٥.

٢- الطبرى: جـ١ ص١٧٤. انظر سفر التكوين الإصحاح الخامس: ٦ - ٢٩.

والذى يمثل ترجمة للإصحاح الأول من سفر إشعياء، ويغلب عليه النهج التقليدى عندهم فى الترجمة بالمعنى مع بعض التصرف، خاصة بعد الثلث الأول من الإصحاح:

(عن عكرمة: قال: إن الله تعالى قال:

(يا سماء أنصتى، ويا أرض استمعى، فإن الله عز وجل يريد أن يذكر شأن ناس من بنى إسرائيل: إنى عمدت إلى عباد من عبادى، ربيتهم فى نعمتى، واصطفيتهم لنفسى، فردوا إلى كرامتى، وطلبوا غير طاعتى وأخلفوا وعدى، تعرف البقر أوطانها، والحمر أربابها، وتفزع. فويل لهؤلاء الذين عظمت خطاياهم، وقست قلوبهم وتركوا الأمر الذى كانوا عليه.

(نالوا كرامتى، وسموا أحبائى، فتركوا قولى، ونبذوا أحكامى، وعملوا بمعصيتى، وهم يتلون كتابى، ويتفقهون فى دينى لغير مرضاتى، ويقربون إلى القربان وقد ابعدتهم من نفسى. يذبحون إلى الذبائح التى قد غصبوا عليها خلقى يصلون فلا تصعد إلى صلاتهم، ويدعوننى فلا يعرج إلى دعاؤهم. يخرجون إلى المساجد وفى ثيابهم الغلول، ويسألون رحمتى وهم يقتلون من سأل بى. فلو أنهم انصفوا المظلوم، وعدلوا باليتيم، وحكموا للأيتام، وتطهروا من الخطايا، وتركوا المعاصى، ثم سألونى لأعطيتهم ما سألوا، وجعلت جنتى لهم نزلا، وما كان بينى وبينهم رسول. ولكن اجترأوا على وظلموا عبادى، فأكل ولى اليتيم ماله، وأكل ولى الأمانة أمانته، وجحدوا الحق ليشترك الأمير ومن تحته، ويرشى الرسول ويشرك من أرسله، فيرشى أمير فيقتدى به من تحته.

(ويل لهؤلاء القوم لو قد جاء وعدى بعد، ثم كانوا فى الحجارة لتشققت عنهم بكلمتى، ولو قبروا فى التراب لنفضت عنهم بطاعتى، وويل للمدن وعمارها، لأسلطن عليهم السباع، أعيد فيها بعد تحية الأعراس صراخ الهام، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرف القصور وعول السباع، وبعد ضوء السراج وهج العجاج. ولأبدلن زجالهم بتلاوة القرآن انتهار الأرانب، وبعمارة المساجد كناسة المرابط، وبتاج الملك خفاق الطير، وبالعز الذل، وبالنعمة الجوع، وبالملك العبودية. فقال نبىٌ من أنبيائه، الله أعلم من هو: يا رب من رحمتك أتكلم بين يديك، وهل ينفعنى ذلك شيئاً وأنا أذل من التراب إنك مخوف هذه القلوب، ومهلك هذه الأمة، وهم ولد خليلك إبراهيم،

وأمة صفيك موسى، وقوم نبيك داود، فأى الأمم تجترئ عليك بعد هذه الأمة؟ وأى قرية تعصيك بعد هذه القرية؟ قال الله تعالى: إنى لم أستكثر بكثرتهم، ولم استوحش بهلاكهم، وإنما أكرمت إبراهيم وموسى وداود بطاعتى، ولو عصونى لأنزلتهم منزل العاصين) [1].

وقد توفى عكرمة سنة ١٠٥ أو ١٠٧هـ.

ونلاحظ أن عكرمة يورد هذا النص كأثر من الآثار دون تعيين مصدره، أو الإشارة إلى كونه من الإسرائيليات، أو أسفار التوراة، فيتوهم القارئ كأنه يتلو أثراً إسلامياً، أو حديثاً نبوياً، ومن هذا الطريق سلك أصحاب الإسرائيليات إلى الدس فى الإسلام، وفى حديث الرسول ﷺ ذاته.

وقد عاصر عكرمة رجل كان من أبرز مروجى الإسرائيليات فى الإسلام، وأعنى به وهبا بن منبه الصنعانى، كان قد تولى القضاء بصنعاء اليمن، وتوفى سنة ١١٠، أو ١١٤هـ.

ومن أبرز النقلة لمأثورات وهب، وإسرائيلياته، رجلان:

أحدهما: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ الذى أورد ذلك فى عدة كتب له أهمها كتابان هما: (المعارف) و (عيون الأخبار).

أما ثانى الرجلين، وأعظمهما أثرا فى توطيد مكانة وهب فهو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ، والذى حفل تفسيره، ثم تاريخه، بإسرائيليات وهب ومنقولاته.

ومنهج وهب هو منهج معاصريه وسابقيه فى الترجمة بالمعنى، والتصرف بالاختصار أو التزيد، حسبما يبدو للناقل، أو مروج هذه الإسرائيليات، ويغلب على وهب طابع التزيد فيما ينقل، بما ينزع إليه من اصطناع ما يراه موافقاً لأهواء المسلمين، لا لحقيقة عقائدهم، مع خيال خصب كثيراً ما جمح به، فأطاح ببعض الحقائق، والأخبار الصحيحة، وأبدلها بمفتريات من عنده.

١- ابو نعيم الاصفهانى: حلية الأولياء جـ٣ ص٢٣٨ - ٢٣٩.

ومع ذلك فقد يحسن أن نحتاط بعض الاحتياط فيما نتهم الرجل به من ذلك، فلعله كان مجرد ناقل فحسب، والفيصل فى ذلك أن نتعرف على نص الأصول التى نقل عنها، سواء مترجمة إلى العربية، أو فى لغة أخرى، وهو أمر فيه عسر شديد.

ونجد لوهب عدة نصوص نقلها ابن قتيبة فى كتاب (الزهد) من كتابه (عيون الأخبار)، يلفت نظرنا منها نصان من التوراة: أحدهما نقله من سفر إشعياء، والآخر نقله من سفر إرمياء، وكلاهما كما هو معلوم من أنبياء بنى إسرائيل، وكتبة التوراة.

فأما النص المنقول عن إشعياء [1] فهو ترجمة بالمعنى للإصحاح الأول من السفر المسمى باسمه، وهو عين الإصحاح الذى ذكرنا من قبل ترجمة له من رواية عكرمة: ولكن ترجمة وهب مختلفة، حيث تتميز ببعض التزيد والاقتباس من مأثورات أخرى، وإن كانت فى الجملة موافقة لمضمون النص الأصلى.

أما النص الذى نقله عن إرمياء [2] فهو أيضاً موافق لأصله، وإن لم يكن مطابقاً فى الترتيب، إذ نجد جزءاً منه فى الإصحاح الثانى من سفر إرمياء كما نعرفه اليوم، مع جزء من الإصحاح الرابع، وهذا النص ورد أيضاً فى تاريخ الطبرى [3].

وما سلكه وهب فى هذين النصين يطابق منهجه فى المأثور عنه فى سائر المنقولات التى نراها فى تاريخ الطبرى وتفسيره منسوبة إليه، وكذلك عند ابن قتيبة فى مواليد آدم، وأخبار الأنبياء، من كتاب (المعارف).

ففى خبر استزلال الشيطان لآدم وزوجته للأكل من الشجرة المحرمة، كما نراه فى تفسير الطبرى [4]، وتاريخه [5]، نجد وهباً ينقل ما جاء فى سفر التكوين من التوراة، مطعماً بشروح أهلها فى زمنه، مع تصرف من وهب ببعض الاستطرادات التى يلتفت فيها إلى الروح الإسلامية، حسب ظنه، وبقدر علمه، أو بالأحرى بقدر ما يجذب آذان سامعيه، وإن ناقض الأصول الصحيحة.

١- ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار ط دار الكتب جـ١ ص٢٦٢ - ٢٦٥.
٢- نفس المصدر ص٢٦١ - ٢٦٢.
٣- التاريخ: جـ١ ص٥٤٨ - ٥٥٠ يوازى نفس النص فى عيون الأخبار - ويستكمله الطبرى على نحو مقتطع حتى ص٥٥٧.
٤- جـ١ ص١٨٧ ط بولاق.
٥- جـ١ ص١٠٨ ط دار المعارف.

ومع ذلك فلوهب منقولات صحيحة من التوراة تتسم بالدقة والإجمال البليغ، بما قد يناظر بالترجمات العربية الحديثة لتلك النصوص، من ذلك مثلاً هذا النص:

(قال موسى - عليه السلام - : (يا رب، إنهم سيسالوننى: كيف كان ربك؟

(قال (الرب): فأخبرهم: أنى أنا قبل كل شئ، وبعد كل شئ) [1].

وهذه الترجمة تكاد تكون حرفية لذلك النص الوارد فى الإصحاح الثالث من سفر الخروج، والذى جاءت صورته فى الترجمة العربية الكاثوليكية على النحو التالى:

(فقال موسى لله: ها أنا سائر إلى بنى إسرائيل، فأقول لهم: إله آبائكم بعثنى إليكم، فإن قالوا لى: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟

(فقال الله لموسى: أنا هو (الكائن). وقال: كذا قل لبنى إسرائيل الكائن أرسلنى إليكم) [2].

وهذا النص من أصعب النصوص التوراتية فى الترجمة لاسم (الله) سبحانه حتى لقد وجدنا الترجمة العربية للبروتستانت تأتى به هكذا:

(فقال موسى لله: ها أنا آتى إلى بنى إسرائيل، وأقول لهم: إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإن قالوا لى: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟

(فقال الله لموسى: (أهيه) الذى (أهيه). وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل (أهيه) أرسلنى إليكم) [3].

وليست الترجمات الأجنبية بأحسن حظاً فى ذلك من الترجمة العربية:

فبعضها ترجمه هكذا	I am who I am
وبعضها الآخر هكذا:	I am that I am
وثالثة الأثافى جاءت هكذا	I will be what I will be

١- الاصفهانى: حلية الأولياء جـ٤ ص٢٧.

٢- ص٣ : ١٢ - ١٤.

٣- ص٣ : ١٢ - ١٤.

وهذه الترجمة الأخيرة تعكس الروح المسيحية المؤلهة للمسيح، والإيماء إلى التجسد، وهو تعسف ذميم فى ترجمة النص.

وليس بنا من حاجة إلى تعقب اجتهادتهم فى ذلك، فهذا أمر يطول، ولا يحتمله هذا السياق، ولكننا أردنا الإيماء إليها لإمعان النظر فى ترجمة وهب لهذا النص بالذات، فقد يكون فى ترجمته من الصواب ما يفيد منه أبناء هذا العصر من الباحثين، والمحققين، الذين لا تعميهم عصبية الديانة، وبريق التقدم الحضارى لبعض الأمم.

ومن منقولات وهب أيضاً هذا النص: (... فى مزامير آل داود: طوبى لرجل لا يسلك سبيل الخطائين، ولا يجالس البطالين، ويستقيم على عبادة ربه. فمثله كمثل شجرة نابتة على ساقيه. لا يزال فيها الماء يفضل بثمرتها فى زمن الثمار. فلا تزال خضراء فى غير (زمن) الثمار) [١].

فهذه الترجمة صحيحة لنصف المزمور الأول، وقد جاء هذا المزمور فى الترجمة العربية هكذا:

(طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة المنافقين، وفى طريق الخطأة لم يقف، وفى مجلس الساخرين لم يجلس. بل فى شريعة الرب هواه، وفى شريعته يهذ نهاراً وليلاً. فيكون كالشجر المغروس على مجارى المياه الذى يؤتى ثمره فى أوانه. وورقه لا يذبل، (وكل ما يصنعه ينجح) [٢].

كذلك نجد من آثار وهب تلخيصاً لما ورد فى الإصحاح الثانى عشر من سفر العدد بشأن مريم أخت موسى إذ عابت عليه زواجه من امرأة حبشية، فدعا عليها فبرصت، ثم ضرع هو وهرون إلى الله لإبرائها مما حاق بها [٣].

ونقل وهب من الإنجيل كما نقل من أسفار التوراة:

فنراه ينقل تجربة إبليس مع المسيح على النحو الوارد فى إنجيل (متى) [٤].

١- حلية الأولياء: جـ٤ ص٦٢ - ٦٣.
٢- الترجمة الكاثوليكية ص١ : ١ - ٢.
٣- الحلية: جـ٤ ص٤٩ - ٥٠.
٤- متى: ص٤ : ١ - ٨، لوقا ٤ : ١ - ١٢، الحلية: جـ٤ ص٥٢.

كذلك يحكى جزءاً من توبيخ المسيح للكتبة والفريسيين من بنى إسرائيل على ما نراه فى الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى فى الآيات ٤، ١٣ - ١٤، ٢٥. إلا انه يأتى به على لسان الله عز وجل وليس على لسان ابن مريم وينقل ذلك بالمعنى لا بالنص (١).

وينقل أيضاً نصاً آخر ورد فى إنجيل متى دون أن يعزوه إلى مصدره، يقول الناقل عنه: (... إنه قال: (دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الأغنياء الجنة) (٢).

وهذا النص جاء أصله عن المسيح فى متى هكذا: (إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى فى ملكوت الله) (٣).

ونحن لا نقصد هنا إلى استجماع منقولات وهب، أو اقتصاص أثرها، وإنما نذكر فقط أمثلة منها تكشف عن مدى اطلاعه على صحف أهل الكتاب، ونقله منها سواء بترجمة يقوم بها هو، أو بإذاعته وترويجه لما وجده منها مترجماً إلى العربية.

وأهم تلك الأسفار التوراتية التى اقتبس منها: سفر التكوين الذى اعتمد عليه فى قصة الخلق، وقصة الأبوين فى الجنة، وقصص الأنبياء من بعد فى بنى إسرائيل وبسببه أسهم إسهاماً عظيماً فى ضرب النصوص القرآنية، وتحريف دلالاتها الحقيقية، وفرض التناقض عليها، كما سنرى خلال دراستنا لتلك القضايا فى كتب تالية بمشيئة الله تعالى.

كذلك اطلع على سفر الخروج، وأفاد منه فى إسرائيلياته بشأن موسى وتعاليمه.

وكذلك اطلع على سفر العدد.

كما اطلع أيضاً على سفر إشعياء، ونقل منه.

وكذلك اطلع على سفر إرمياء ونقل منه.

١- الحلية: جـ٤ ص٣٨.
٢- الحلية: جـ٤ ص٥٧.
٣- متى: ص١٩ : ٢٤.

واطلع أيضاً على مزامير داود ونقل منها.

أما الأناجيل فإن أهم إنجيل نراه نقل عنه هو إنجيل متى، كما نلحظ فى بعض رواياته فى التفسير والتاريخ أنه اطلع أيضاً على الأناجيل غير المعتمدة وكان ينقل منها باعتبارها صحيحة، وربما ألمح هو نفسه إلى اطلاعه على كتب أخرى عند النصارى لم يصرح بها، ولا نعلمها الآن، فقد روى بعض أصحابه: (قال: سمعت وهبا يقول: قرأت فى كتاب رجل من الحواريين: إذا سلك بك طريق البلاء - أو قال طريق أهل البلاء - فطب نفسا، فقد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك طريق الرخاء فقد أخذ بك فى طريق غير طريق الأنبياء والصالحين) [1].

ونحن لا نعلم هذا الكتاب الذى ينقل منه ذلك النص، وربما كان من الكتب المنحولة (الأبوكريفية) التى نسبت إلى تلامذة المسيح وهى من وضع بعض أصحاب الشيع التى ظهرت فى المسيحية خاصة فى القرنين الثانى والثالث، ونعلم بأسماء كثير من تلك الكتب لكن لا نصل إلى أصولها.

ويبدو أن وهبا أدرك فى زمنه أنه كانت هناك كتب فى اليهودية والمسيحية لها صفة السرية لا يطلع عليها إلا الخاصة، وأنه تمكن من الاطلاع عليها، ففى خبر عنه يقول: (قرأت نيفا وتسعين كتاباً من كتب الله عز وجل، منها سبعون أو نيف وسبعون ظاهرة فى الكتابين. ومنها عشرون لا يعلمها إلا قليل من الناس...) [2].

ولعل هذه الكتب العشرين التى اعتبرها وهب ذات خصوصية حتى لا يعلمها إلا قليل من الناس هى تلك الكتب المنحولة التى نعرفها الآن باسم الكتب الأبوكريفية Apocryphal Books ويقرر اليهود والنصارى بشأنها أنها غير معتمدة وأنها مزورة، ولا تمت بصلة إلى الأنبياء، والأشخاص الذين تحمل أسماءهم، وتنسب إليهم.

توفى وهب كما نعلم سنة ١١٠، أو ١١٤هـ.

وهكذا ما كاد ينقضى القرن الأول للهجرة، وعلى أثره ذهب وهب، حتى كان

١- الحلية: جـ٤ ص٥٦.

٢- الحلية: جـ١ ص٢٤.

قد تراكم هنالك إرث ضخم من النصوص التوراتية والإنجيلية، والمأثورات اليهودية والنصرانية، جارية على اللسان العربى، تشرب بها الوجدان الإسلامى، وتشبعت بها أفكار الجماهير، عن طريق المفسرين، والقصاصين، والمعلمين الجهلة، ليأتى مردودها بعد ذلك بقرن أو قرنين وبالاً على الإسلام، وتناقضاً مع القرآن، وانحرافاً عن أصول الكتاب، وحقائق الاعتقاد، كما سوف نرى فى الكتب التالية بمشيئة الله تعالى.

الفصل الرابع

الترجمة الشاملة والمنظمة للكتاب المقدس
إلى العربية
فى القرن الثانى الهجرى - الثامن للميلاد

إذا كانت تلك الترجمات التى أشرنا إليها من قبل، وذكرنا بعض آثار منها بالمعنى أو بالنص، تحتمل التصرف من الناقل، ويعوزها التنظيم والدقة، وتفتقر إلى تمحيص الأصل وتحقيقه، وهى مع ذلك لا تنتظم كل أسفار الكتابين: التوراة والأنجيل، فإنه بحلول القرن الثانى للهجرة - الثامن للميلاد بدأ الوضع يختلف، وبدأ المسيحيون العرب يستقبلون ترجمات جديدة كاملة ومنظمة:

ففى سنة ٧٢٤م الموازية لسنة ١٠٦هـ كان (يوحنا) أسقف أشبيلية يخرج ترجمة عربيــة كاملــة ومنظمة للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لمنفعة المسيحيين المغاربة Moors أى العرب كما كان يسميهم الأوربيون فى العصور الوسطى.

ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتقبل زعماً بأن ترجمة هذا الأشبيلى كانت مستخدمة عند عرب المشرق من المسيحيين، إذ لا بينة على ذلك. كما أن كونه يختص بها مسيحيى الأندلس فيه إيحاء بأنه ربما كان فى المشرق ترجمة، أو ترجمات، عربية للكتاب المقدس لكنها لا تصل إلى هؤلاء، أو لا يتيسر تحصيلها لهم.

كذلك فإننا أيضاً لا نعلم بالقطع النسخة الحقيقية التى اعتمدها هذا الإسبانى فى ترجمته، سواء للتوراة، أو الإنجيل، أو كليهما، من النسخ العبرانية والسريانية

واليونانية واللاتينية وغيرها من الأصول وترجمات السابقين، إلا أن يكون قد اعتمد فى ذلك النسخة اللاتينية Volgate كأصل لترجمته على ما توهم به بعض أخباره.

وفى مقابل ذلك يبرز لنا شاهد قوى على وجود ترجمة عربية للإنجيل عن نسخة سريانية عند عرب المشرق فى نفس الحقبة التى أذاع فيها ذلك الأسقف ترجمته المذكورة، إذ نرى المؤرخ العلامة محمد بن إسحاق بن يسار المولود سنة ٨٥هـ - ٧٠٤م بشرع سنة ١١٥هـ - ٧٣٣م فى وضع أخطر كتاب عرفته العربية عن سيرة الرسول ﷺ، وقصة الخليقة، وتاريخ الأنبياء بمدينة الرسول ﷺ، وفيه ينقل نصوصاً من التوراة مترجمة ترجمة عربية دقيقة تناظر أدق الترجمات العربية الحديثة والمعاصرة، رأينا بعضها فى تفسير الطبرى وتاريخه، وسنعرض لها فى قصة الخليقة فى كتاب آخر بمشيئة الله تعالى. كما رأينا نصاً من إنجيل (يوحنا) فى مختصر سيرة الرسول ﷺ الذى وضعه ابن هشام لكتاب ابن إسحق، ويرتد أصل هذا النص إلى نسخة سريانية كما ذكرنا من قبل، وكما سنرى الآن من خلال النص المذكور.

والنص الذى اقتبسه ابن إسحاق هو فيما ذهب إليه من أن صفة الرسول ﷺ وردت فى كلام المسيح المدون بالإنجيل، وها هى صورته:

(قال ابن إسحاق: وقد كان فيما بلغنى، عما كان وضع عيسى بن مريم، فيما جاءه من الله فى الإنجيل، لأهل الإنجيل، من صفة رسول الله ﷺ، مما أثبت (يحنس) الحوارى لهم، حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم، عليه السلام، فى رسول الله ﷺ، إليهم: أنه قال:

(من أبغضنى فقد أبغض (الرب).

(ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة.

(ولكن من الآن بطروا، وظنوا أنهم (يعزوننى)، وأيضاً الرب.

(ولكن لابد من أن تتم الكلمة التى فى (الناموس): أنهم أبغضونى مجاناً، أى باطلاً.

(فلو قد جاء (المنحمنا)، هذا الذى (يرسله) الله إليكم، من عند (الرب)، روح القسط، هذا الذى من عند الرب خرج، فهو شهيد على، وأنتم أيضاً، لأنكم قديماً كنتم معى.

(فى هذا قلت لكم، لكيما لا تشكوا).

ويعقب على ذلك ابن إسحاق، أو ابن هشام، مفسراً:

(المنحمنا) (بالسريانية): محمد، وهو بالرومية: البرقليطس) [1].

وقد جاء هذا النص فى الترجمة العربية الكاثوليكية هكذا:

(من يبغضنى فإنه يبغض (أبى) أيضاً.

(لو لم أعمل بينهم أعمالاً لم يعملها آخر لما كانت لهم خطيئة.

(أما الآن: فقد رأوا، وأبغضونى، أنا وأبى.

(لكن ذلك هو لكى تتم الكلمة المكتوبة فى (ناموسهم): أنهم أبغضونى بلا سبب.

(ومتى جاء (المعزى) الذى (ارسله) إليكم، من عند الآب، روح الحق، الذى من الآب ينبثق، فهو يشهد لى.

(وأنتم تشهدون لأنكم معى منذ الابتداء [2].

(كلمتكم بهذا لكى لا تشكّوا) [3].

واضح تماماً تطابق النص عند ابن إسحاق مع صورته فى النسخ الحالية لا يكاد يختلف معها إلا فى لفظ، أو لفظين:

أحدهما: استخدام ابن إسحاق لفظ (الرب) فى مقابل لفظ (الآب)، وهو اختلاف قد يرتد إلى النسخة التى نقل منها ابن إسحاق هذا النص، وليس من الضرورى أن

١- السيرة: لابن هشام - ط.

٢- إصحاح: ١٥ : ٢٣ - ٢٧.

٣- إصحاح ١٦ : ١ واضح من نقل ابن إسحق أن تقسيم الإنجيل إلى إصحاحات لم يكن قد تم بعد، إذ كان ذلك بعده بأربعة قرون على النحو الذى نعرفه اليوم. وبعد محاولات للتقسيم غير موفقة.

يكون بالتغيير المقصود من جانبه - ولا يلزم كذلك أن يكون تصحيفاً، أو خطأ فى القراءة، كما قد يتوهم البعض.

ومع ذلك، فإنه حتى لو افترضنا أن ابن اسحاق حاول أن يراعى الروح الإسلامية فأدخل هذا التغيير بأن وضع لفظ (الرب) بدلاً من لفظ (الآب) فلا غبار عليه إذ كان ينقل ذلك للمسلمين، وهم لا يقرون بذلك الاعتقاد، فحمل اللفظ على أقرب صوره ومخارجه، وفى نفس الوقت يحتمله المعنى، وتحتمله طبيعة مسيحهم فى أحد وجهيها حسب اعتقادهم. خاصة وهو يكتب ذلك فى صدر الإسلام، ولم يكن الناس قد تمرسوا بعد بقراءة كتب ومعتقدات هؤلاء وغيرهم، أو تكونت لهم خلفية من العلم تمكنهم من مدافعة اللغو، أو الدس، حيثما وجدوه!!

أم الموضع الثانى: فهو ما ورد فى نص ابن إسحق عن السريانية هكذا: (هذا الذى يرسله الله إليكم) إذ قابلتها النسخة الحالية هكذا: (الذى أرسله إليكم): وهذا الاختلاف قد يرجع أيضاً إلى النسخة السريانية، ولا يلزم منه بالضرورة أنه من عمل ابن إسحق، وعلى افتراض أن ذلك من عمله فسببه ما ذكرناه من قبل.

ومع ذلك فبين النسختين السرانية والحالية اختلاف آخر لا يمكن أن يرتد إلى ابن إسحق، فقد جاء فى السريانية قوله: (ولكن من الآن بطروا، وظنوا أنهم (يعزوننى)، وأيضاً (الرب)، وقد ترجمتها النسخة الحالية هكذا: (أما الآن فقد رأوا، وأبغضونى، أنا وأبى)، وواضح أن المعنى قد اختلف بينهما:

فقوله: (بطروا) يعنى أنهم: تجبروا، وتمادوا فى الاستخفاف به.

وقوله: (يعزوننى) يعنى أنهم: يقهروننى، أو يشتدون على، أو يغلبوننى.

فتصبح العبارة هكذا: ولكن من الآن (تجبروا) و (بغوا) وظنوا أنهم (يقهروننى)، ويقهرون تدبير الرب).

وأداء المعنى على هذا النحو من النسخة السريانية أقرب ما يكون إلى الجو النفسى والواقعى آنذاك بالنسبة للمسيح، وأدنى إلى الإيحاء بأن هناك تدبيراً للرب ومسيحه سيحبط تدبيرهم ويرد بغيهم على أنفسهم.

على أية حال: فنص ابن إسحق له دلالاته: من ذلك مثلاً الإبانة عن وجود ترجمة عربية دقيقة للإنجيل، تلتزم النص الأصلى، ولا تعمد إلى الترجمة بالمعنى، والتصرف فى سياق النص كما كان الحال من قبل.

كذلك فان اللفظ (منحمنا) وهو لفظ سريانى على قول ابن إسحق، أو صاحب المختصر، يعنى أن الترجمة العربية التى نقل منها منقولة عن ترجمة سريانية، وليس عن الأصل اليونانى المنسوب إلى كاتب ذلك الإنجيل، ولا عن الترجمة اللاتينية Volgate التى يشار إليها أحياناً كأصل لترجمة يوحنا الأشبيلى العربية.

أما الدلالة الثالثة: فهى أن ابن إسحق يذكر اسم الإنجيل الذى ينقل منه، واسم كاتبه الذى ينسب إليه على قول النصارى، وهذا شئ جديد لم يكن معروفاً للمسلمين، أو شائعاً بين جماهيرهم علم به من قبل، فلم يكونوا يعلمون أن هنالك أناجيل متعددة كتبها أشخاص مختلفون عن سيرة المسيح وتعاليمه، إذ كان الاعتقاد السائد عندهم ان الإنجيل قد (أنزل) على المسيح، لا على تلامذته، أو تابعين له، وهو الاعتقاد الصحيح، إذ كان المسيح إنما يعلم بما يوحى إليه وذلك الوحى هو المشار إليه فى الكتاب العزيز باسم (الإنجيل) كما فى قوله: (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم وآتيناه - الإنجيل) [1]. ولكن المسلمين للأسف لم يتفطنوا إلى حقيقة الإنجيل، فظنوا أنه كتاب (مدون) على ما كان الشأن فى كتاب موسى من قبل، وكتاب نبيهم. وبهذا الاعتقاد الخاطئ بشأن الإنجيل وقعت أخطاء جسيمة فى حق الإسلام، إذ كان لفظ (الكتاب) فى القرآن عندما يذكر كوحى منزل على نبى من الأنبياء، كما هو الحال فى الإشارة به إلى ما أوتيه موسى، أو ما أوتيه محمد، إنما يراد به أن يكون جامعاً للعقيدة والشريعة معاً، ناسخاً بالضرورة لشريعة سابقة، نافذ الأحكام لوقته على أيدى نبى متبوع ذى سلطان زمنى قائم، يلزم به المؤمنين، ويقيم حدوده على العصاة والمرتدين، ومعلوم أن إنجيل المسيح ليس من هذا الشأن بسبيل.

وقد ترتب على هذا الخطأ من المسلمين أن قالوا بتلك الخرافة الكبرى وهى أن المسيح نسخ شريعة موسى، وأن الإنجيل أسقط التوراة، غافلين عن إشارة موسى من

١- الحديد: ٧.

قبل انه لا يقوم نبى فى إسرائيل مثله [١]، أى لا يقوم نبى فى بنى إسرائيل بشريعة جديدة خلاف شريعته. وذلك منه تحريم مؤبد لا ينقضه نبى من بنى إسرائيل أيا كان شأنه سواء كان المسيح، أو غير المسيح، وقد أكد هذه الحقيقة المسيح ابن مريم ذاته إذ قال: (ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل) [٢]، وكذلك شدد على أتباعه فى مراعاة هذه الحقيقة عندما قال: (على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تفعلوه، فافعلوه واحفظوه) [٣].

ومن ثمة فاتتهم النتيجة اللازمة عن ذلك: وهى أن المسيح مجرد نبى إسرائيلى، لا يتجاوز برسالته حدود بنى إسرائيل، وإلا نقض شريعة موسى، ونقض شهادته على نفسه، وكونه مجرد تابع مجتهد فى حدود تلك الشريعة. ولم يدركوا أن ما قيل بخلاف ذلك إنما هو من قول (بولس) الذى بدل دين المسيح، وقال له بالألوهية، وسمى نفسه (رسول الأمم).

وقد أحسن النصارى استغلال هذه الضلالة، واجتهدوا فى طعن القرآن، وإبطال نبوة محمد، وتنحية بشارة موسى عنه، ليحملوها ظلماً على ابن مريم، والتمسوا هفوات المسلمين بسبب ذلك ليحملوا الإشارة إلى (كتاب) من قبل القرآن على أنه الإنجيل، مع علمهم أن الإشارة لاتقع إلا على التوراة فحسب، يشهد لذلك سياق النص القرآنى، والأمر الواقع الذى لا ينبغى مدافعته، وهو أن (الإنجيل) ليس بكتاب، ولم يكن قط بكتاب، ولم يعتمده القرآن أبداً ككتاب وإنما شأنه شأن مزامير داود مجرد صحائف موعظة وإرشاد، لا ترتقى أبداً إلى صفة الفرائض والأحكام، ولا يحمل عليها أحد بجبر أو إلزام.

وإنما فعلوا ذلك استجهالاً للمسلمين واستغفالاً لهم، وتجبرا عليهم، وتعنتا معهم، وويل للمسلمين من حصائد ألسنتهم وأخطاء أيديهم!

لذلك كان ما ذكره ابن إسحاق من تسمية الإنجيل الذى نقل منه، ونسبته إلى كاتبه، دالا على ظهور الوعى عند المسلمين بحقيقة الإنجيل كما ذكرها القرآن، وكما يرونها

١- التثنية: ص٣٤ : ١٠.
٢- متى: ص٥ : ١٧.
٣- متى ص: ٢٣ : ٢ - ٣.

وحياً إلى المسيح، ثم وعيهم بعد ذلك أن هنالك أيضاً ما يطلق عليه نفس الاسم، لكنه من عمل آخرين يزعمون أنهم يجمعون فيه أخبار المسيح وتعاليمه، وهم مختلفون فيما يذكرون من ذلك فمن ثمة تعددت (الأناجيل) بتعدد كاتبيها، واختلفت باختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم، وصار على من يشير إلى شئ منها أن يذكر اسم ذلك الإنجيل، بنسبته إلى كاتبه الحقيقى أو المزعوم.

وإذن فابن إسحاق قد أبان بذلك عن علم بتلك الأناجيل المتعددة وبكونها فى زمنه كانت مترجمة إلى العربية ترجمة تلتزم النص الأصلى، خاصة وهو ينقل من الإنجيل الرابع - إنجيل يوحنا - وهو الذى يجب أن يكون آخر الأناجيل الأربعة فى النقل والترجمة، إذ كان هو ما نسميه نحن (إنجيل العثرة) لأنه وضع عمداً من أنصار بولس للقول بالألوهية للمسيح ابن مريم، وينفرد من دون الثلاثة الأخرى بأخبار جديدة وبكونه يصرح باللاهوت للمسيح، ولابد للمسيحى أن يقرأ فى الثلاثة الأخرى قبل الانتقال إلى هذا الأخير.

نخرج من ذلك إذن بأنه فى زمن ابن إسحاق، أى فيما قبل منتصف القرن الثانى للهجرة، كانت هنالك ترجمة عربية للإنجيل وللتوراة تلتزم النص الأصلى، وأنها فيما يغلب على ظننا كانت غير تلك التى يقوم بها فى إسبانيا يوحنا اسقف أشبيلية عن الترجمة اللاتينية المعروفة باسم Volgate.

وعلى ذكر النسخة السريانية التى نقل ابن إسحاق نصه من ترجمتها العربية يخطر لنا أن نشير إلى ذلك الكتاب المسمى عند المسيحيين منذ القرن الثانى للميلا: (الدياطسرون) Diatessaron وهذه لفظة يونانية مركبة معناها الإنجيل (الرباعى)، وقد وضع هذا الاسم عنواناً لكتاب صنفه فيلسوف مسيحى فى القرن الثانى للميلاد فيما بين سنتى ١٧٢ - ١٧٥م، كمحاولة للتوفيق بين الأناجيل الأربعة المعروفة التى اعتمدتها الكنيسة فى منتصف القرن الثانى وأدرك الناس شدة ما بينها من تعارض، فقام هذا المسيحى المدعو طاطيان Tatian بوضع كتابه هذا، منسقاً من نصوص الأناجيل الأربعة إنجيلاً واحداً، بنص واحد، ورواية واحدة.

وقد قيل إنه وضعه أصلاً بالسريانية، ثم نقل إلى اليونانية، وقيل العكس.

وهم متفقون على أن النسخة السريانية لهذا (الدياطسرون) أو (الرباعى) قد ظلت رائجة عند الشرقيين حتى القرن التاسع للميلاد، أو بعد ذلك، أى إنه ظل إلى ما بعد الفترة التى عاصرها ابن إسحاق بقرن أو يزيد.

ومن ثمة فقد يخطر بالبال أن تكون نسخة هذا الدياطسرون قد ترجمت من السريانية إلى العربية فى القرن الثانى للهجرة الثامن للميلاد، وأن يكون ابن إسحاق قد أفاد ونقل من تلك الترجمة، خاصة وأن النص الذى نقله موجود بتلك النسخة بتمامه [1].

ولكن ذلك لا يصح لأسباب:

الأول: أنه ليس هنالك خبر قط ولا حتى مجرد دعوى عن أية ترجمة عربية لهذا الإنجيل الرباعى قبل القرن الخامس للهجرة الحادى عشر للميلاد.

الثانى: أن المسيحيين الشرقيين يقرون بأن الترجمة العربية للدياطسرون وضعها أحد رجلين:

الأول: أبو الفرج (عبد الله بن الطيب) وكان طبيباً، ومترجماً، وفيلسوفاً توفى فى القرن الخامس للهجرة حوالى سنة ٤٣٥ وهو ما يقارب منتصف القرن الحادى عشر للميلاد، أو سنة ١٠٤٣ منه، أى بعد ابن إسحاق بحوالى ثلاثة قرون.

الثانى: أبو الفرج (غريغوريوس بن اهرون) المعروف (بابن العبرى) وكان فيلسوفاً، وطبيباً، ومن رؤساء الدين المسيحى على النحلة اليعقوبية، وتوفى سنة ٦٨٥هـ الموازى لسنة ١٢٨٦م، أى بعد ابن إسحاق بأكثر من خمسة قرون.

وهم يميلون إلى ترجيح كون الترجمة من عمل هذا الأخير.

فلا شبهة إذن للقول بترجمة عربية للدياطسرون فى زمن ابن إسحاق أو قبله.

على أننا نحب أن ننبه الباحثين الذين يعنيهم أن يتعرفوا على علاقة النسخة العربية

١- الدياطسرون: الإصحاح السادس والأربعون. ٢٣ - ٢٧، و(يو ١ : ١٦).

الحالية من الياطسرون بالأصل الأول الذى وضعه طاطيان فى القرن الثانى للميلاد، فنقول: إنه خطأ جسيم أن يتورط باحث بادعاء أن النص الحالى موافق، أو مطابق، للنص الذى عرفه الناس من هذا الرباعى فى القرنين الثانى والثالث للميلاد، بل نحن نقول إن هذه النسخة التى نعرفها نسخة (معدلة) بما يوافق أصول الأناجيل الحالية منذ القرنين الرابع والخامس، وتختلف تماماً عن النسخة التى وضعها طاطيان فى القرن الثانى بما يوافق أصول الأناجيل فى ذلك الزمن، ودليلنا على ذلك أننا نلاحظ تمام التوافق بين نسخة الرباعى هذا وبين نسخ الإنجيل الحالية، مع أننا قد وضعنا أيدينا فى كتاب سابق [1] على نصوص من الإنجيل وردت فى كتبهم ذات الأهمية القصوى فى تقرير معتقداتهم وطقوسهم، والتى كتبت فى القرون الثلاثة الأولى، وإذا بنا نجدها قد بدلت، وحورت، ومزقت، فى النسخ الحالية، كما وسع بعضها، واختصر البعض الآخر، وقد بينا نحن أسباب ذلك فى موضعه، وقررنا أن النسخ الحالية قد وضعت بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ الذى انعقد لإقرار الاعتقاد بتأليه المسيح، وبعد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ الذى انعقد بدوره لإقرار تأليه (الروح القدس)، وبناء عليهما تم إقرار صيغة التثليث التى لم تكن مسلمة من قبل، ولا كان لها أصل فى الإنجيل، فجاءت مستجمعة معاً، ودونت فى إنجيل متى هكذا: (اذهبوا، وتلمذوا جميع (الأمم) وعمدوهم باسم، الآب، والابن، والروح القدس) [2].

ونحن نرى هذه الأصول العقائدية التى تناقضها الشواهد التى أومأنا إليها هى المقررة حالياً، وبنفس الحروف والألفاظ فى نسخة الدياطسرون العربى، وهذا قاطع إذن بأنه قد أدخلت عليه التعديلات التى أدخلت على نسخ الإنجيل الأربع بعد المجمعين المذكورين، وبهذا أعيد وضعه وتشكيله على نسق ما تم من صوغ الأناجيل فى صورتها الجديدة، يؤكد ذلك إقرار علمائهم بأن آباء الكنيسة فى القرن الأول أكثروا من النقل من الأسفار المنحولة والأسفار المعتمدة معاً على حد سواء، على اعتبار أنها جميعاً صحيحة وأصيلة، وأن ذلك قد اتصل أيضاً خلال القرن الثانى على ما نراه عند كل من يوستينوس الشهيد Justin Martyr وتلميذه طاطيان Tatian حيث يسجل يوستينوس

١- أنظر كتابنا عقائد النصارى الموحدين: فصل: شواهد قديمة من الإنجيل تشهد بتحريفه.

٢- متى ص٢٨ : ١٩.

(أن ذكريات الرسل Memoirs Of the Apostles التى تسمى (الأناجيل) كانت تتلى فى الطقوس المسيحية، ومع ذلك نجد أن من هذه الاقتباسات التى أوردها يوستينوس ما لا يوجد فى الأناجيل المعتمدة الحالية، أو ما لا يتفق مع مضمونها، لأنها تستمد مادتها من الأسفار الأبوكريفية ونفس هذه المواد الأبوكريفية هى التى استخدمها طاطيان فى تنسيقه للأناجيل الذى عرف باسم (الدياطسرون) Diatessaron [1].

واضح من ذلك إذن بإقرار علمائهم أن الدياطسرون كان يشتمل على مواد أبو كريفية من الأناجيل غير المعتمدة، تخالف وتناقض الأناجيل المعتمدة الحالية، فأين نجد ذلك الآن فى النسخة العربية الحالية من هذا الدياطسرون؟ وأين هو الدليل على أصالة هذه النسخة العربية المزعومة؟

إن هذه النسخة العربية من الدياطسرون لا تمت بصلة قط إلى ذلك الكتاب الذى وضعه طاطيان فى أواخر القرن الثانى للميلاد اللهم إلا فى منهج التوفيق والتنسيق للرواية الإنجيلية وليس فى مادتها ومضمونها.

وعلى ذلك تسقط تماماً حجية هذا الدياطسرون العربى المزعوم، ويسقط كل اعتبار لنسخته الحالية، وما شاكلها فى أية لغة أخرى.

ولعل ذلك كله يساعد على تفسير أسباب التجاهل والتهجم على طاطيان وكتابه خلال القرنين الثالث والرابع، إذ كان ذلك بسبب النسخة الأصلية التى لم تكن قد خضعت بعد للاختلافات التى نشبت بين الطوائف المسيحية فى القرن الثالث، وذكر أوسابيوس القيصرى أمثلة لها فى تاريخه [2]، ولم تكن قد خضعت أيضاً للتعديلات التى أدخلها المجمعان الآنف ذكرهما فى القرن الرابع، وعاصر أولهما، وأسهم فى إعداده المؤرخ المذكور.

ثم لم يلبث الدياطسرون أن استرد وضعه، وفشا استعماله بين الشرقيين منذ القرن الخامس حتى العاشر للميلاد، ولكن بعد أن خضع للتعديل على مقتضى التطورات

١- Thw New Bible Dic. Canon of the O.T ., P. 195.

٢- أوسابيوس القيصرى: تاريخ الكنيسة: ك: ٥ : ٢٨ خاصة الفقرات ١٣ - ١٩.

التى أسلفنا ذكرها، وطبعاً دون ذكر أو إشارة من علماء الكنيسة ومؤلفيها إلى ذلك التعديل الذى تم فى صمت وحذر، فهم - والحق يقال - متمرسون جيداً بهذه الأمور، ومتواضعون جداً لا يحبون الإشادة بأفضالهم!!

ثم نعود من هذا الاستطراد إلى ما كان من نبأ الترجمة العربية للتوراة والإنجيل فى زمن ابن إسحق، فنقول: قد يكون مما يعزز ذلك ما نجده من نصوص منهما فى كتابين وصلا إلينا من تدوين النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى - الثامن للميلاد، بعد وفاة ابن إسحق، لأسقف مسيحى ملكانى المذهب، هو (ثاودورس (أبو قرة) [1] المتوفى حوالى سنة ٨٢٥م، أى سنة ٢١٠هـ إذ نراه فى كتاب له بعنوان: (ميمرفى وجود الخالق، والدين القويم) يقتبس كثيراً من نصوص الإنجيل، وخاصة فى الفصلين الثالث عشر، والرابع عشر، يورد معظمها بنصه، سواء كان ذلك من ترجمته هو إلى العربية، أو من نقله عن ترجمة عربية قائمة. ونرى تلك النصوص مطابقة للترجمة الحرفية الحالية، إلا فيما يختلف به مترجم عن مترجم فى صوغ العبارة، وإبراز المعنى، بما لا يمس الأصل ولا يبدل فى دلالته.

أما الكتاب الثانى لذلك الأسقف، والذى أسماه (ميمر فى إكرام الأيقونات) فنراه يقوم فيه بمسح شامل لمعظم أسفار الكتاب المقدس للاستشهاد بها على دعاواه، ذاكراً ذلك تارة بالمعنى، وتارة بالنص.

وفى كل ذلك لا نلحظ منه إيماء بأنه يترجم النصوص بنفسه، أو أنه يستشعر حاجة قارئه إلى نسخة عربية للكتاب المقدس، وهذا قد يعنى وجود ترجمة عربية تلتزم الأصل ينقل منها، أو يطمئن على وجودها بين يدى القارئ، حتى لو لم يتقيد هو بمنهجها وحروفها. أو على الأقل نتبين نحن من ذلك شيوع منهج الترجمة الحرفية لنصوص الكتاب المقدس فى تلك الفترة.

والآن: لعلنا نستطيع أن نقرر بعد ذلك العرض الذى قدمناه، أنه بانتهاء القرن الثانى للهجرة - الثامن للميلاد - على الأكثر - تكون قد تمت ترجمة الكتاب المقدس بشقيه

١- سنعرض لهذا الأسقف المتفلسف فى كتاب لاحق لنبين سفاهته فيما ذكره بشأن الخالق لنقض عقيدة التوحيد فى الإسلام.

التوراة والإنجيل إلى العربية ترجمة نصية كاملة تنتظم جميع أسفارهما. وصارت بذلك حقيقة واقعة، وأمراً مفروغاً منه، ومسلماً به، منذ تلك الحقبة.

وبهذا الذى قدمناه تتم أخطر مرحلة فى ترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية، لم تسبق بمثلها من قبل قط، لتبدأ بعدها أهم المناظرات الدينية، والكتابات الدفاعية، بين أصحاب الديانات الثلاث، وتتم أخطر مراحل تشكيل قسمات وملامح الوجه الجديد للإسلام.

القسم الثانى

آثار من ترجمة أسفار منحولة فى العهدين القديم والجديد ظهرت عند الإسلاميين منذ البعثة وحتى نهاية القرن الثانى للهجرة - الثامن للميلاد

الفصل الأول

بيان عن ترجمة الأسفار المنحولة
فى التوراة والإنجيل إلى العربية
زمن الإسلاميين أو قبلهم

وإذا كنا قد أتينا بالشواهد الدالة على ترجمة نصوص من الكتاب المقدس بشقيه التوراة والإنجيل إلى العربية قبل البعثة المحمدية، وفى زمن البعثة، ومن بعدها فى عهد الصحابة والتابعين، ثم تتالى ذلك إلى أن تحققت للكتاب المقدس ترجمة عربية كاملة حرفية ومنظمة اشتملت كل أسفاره فى العهدين القديم والجديد قبل منتصف القرن الثانى للهجرة، وصار مفروغا من شأنه تماماً ويحال إليه فى تلك الترجمة العربية قبل نهاية القرن الثانى من الهجرة أى نهاية القرن الثامن للميلاد، ورأينا أيضاً نماذج من محاولات الترجمة إلى العربية فى مراحلها المختلفة، من ترجمة بالمعنى الذى يحتمل التصرف أحياناً إلى ترجمة نصية تلتزم حدود النص الأصلى بما يستلزم من دقة وضبط واستقصاء لكافة ما يمكن الاهتداء إليه من أصول ومصادر.

نقول: إذا كنا قد فعلنا ذلك فيما يختص بنقل الكتاب المقدس باعتباره النص المعتمد من اليهود والنصارى، إلا أن الصورة لا تتم لتحقيق استقراء صحيح للإسرائيليات فى الإسلام إلا بأن نلتفت أيضاً إلى الجانب الآخر أعنى ما يسمونه الأسفار (المنحولة) أو (الإبوكريفية Apocryphal Books) وهى كتب وضع بعضها عند اليهود قبل زمن الميلاد فى صورة أناجيل، أو رسائل، أو أعمال (سير) منسوبة إلى بعض تلامذة المسيح الاثنى عشر الذين يدعونهم باسم (الرسل) أو (الحواريين).

إن مراجعة الإسرائيليات فى الإسلام تكشف عن جانب كبير بالغ الخطر والأهمية من هذه الأسفار نفذ إلى الرواة والمحدثين الأولين على نحو بلغ فى بعض الأحيان من دقة النقل، ومطابقة الأصل، حداً يثير الدهشة، ويستوجب إعادة النظر بجدية وحزم فى بعض الأحاديث والآثار التى ترفع إلى الرسول ﷺ، واستئناف البحث بشأن بعض هؤلاء الرواة مهما تكن منزلتهم فى الإسلام، ومن أخص هؤلاء ذلك الصحابى المشهور (أبو هريرة الدوسى) الذى كان يزعم - فيما نقلوا عنه - أنه لا يقرأ ولا يكتب، فهل كان حقاً لا يقرأ ولا يكتب؟!

على اية حال، سنرى نصوصاً وأخباراً من تلك الأسفار غير المعتمدة عند الأمتين اليهودية والنصرانية فى منقولات المسلمين تقطع بترجمتها ورواجها عند بعض الصحابة والتابعين الأولين ومن لحق بهم، وأخذ عنهم، كوهب بن منبه، ومحمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة وآخرين من تلك الطبقة من المتقدمين.

وسنجتزئ من تلك النصوص بعينة محدودة من أسفار اليهود، ومن أسفار النصارى، تلك الأسفار التى يزعم الفريقان أنها منحولة، ويرفضون اعتمادها كأسفار قانونية صحيحة لكونها تتضمن بعض ما يرونه مخالفاً للأسفار التى اعتمدوها، ثم ضبطوها، ونقحوها على وفق عقائدهم التى ارتضوها، بعد أن ضلت سبلهم إلى الأصول الأولى.

ونصنف هذه النصوص فى مجموعتين:

الأولى: نصوص من الأسفار اليهودية المنحولة.

الثانية: نصوص من الأناجيل والرسائل المنحولة.

المجموعة الأولى

نصوص من الأسفار اليهودية المنحولة

وسنكتفى هنا بنصين اثنين فقط جاءا فى أوثق جوامع الحديث عند المسلمين، وعلى لسان أحد الثقات القلائل من صحابة الرسول ﷺ فى رواية الحديث، على قول المحدثين، والذى عنه أخذ أكثر الرواة والمحدثين فى الإسلام، وأعنى به (أبا هريرة الدوسى)!!

ونحن لا نقصد إلى خدش أبى هريرة أو تجريحه والنيل منه، فنحن لا نشك فى صحة عقيدته، ولا فى خلوص نيته، وإنما هو بشر، كما نحن بشر، لا عصمة له ولا عصمة لنا، ولابد أن تعرض له عوارض الضعف البشرى من غفلة، أو سهو أو نسيان، فيخطئ فى نسبة الخبر إلى مصدره، ويقع من ذلك شئ فى روايته لحديث الرسول ﷺ، وكما يقع ذلك منه، يقع أيضاً من غيره، وكل ذلك منته بنا إلى إيجاب البحث الصحيح، و النظر الدقيق، فيما نقله إلينا أولئك المتقدمون الأولون مستبصرين فى ذلك بما لا يمس نص القرآن، أو شخص الرسول ﷺ، ومستعينين بما أمكن الاهتداء إليه، والإفادة منه، من أصول ومصادر، وبحوث ودراسات هى فى النهاية وسائلنا إلى غاية واحدة لا نطمع فى سواها، وتلك هى تحرير الإسلام من كل أثر دخيل، والعودة به إلى نقائه الأول قبل أن تشوبه الشوائب، وتستبدّ به سطوة الإسرائيليات، وأهواء الدخلاء وذوى الأغراض.

على أن هناك قضية بشأن ابى هريرة يحسن أن نعرض لها الآن: فهل حقاً كان أبو هريرة لا يقرأ ولا يكتب؟

يميل علماء الحديث إلى توكيد القول بأن أبا هريرة لم يكن يكتب، وذلك استناداً إلى آثار نقلت عنه بكونه لا يكتب، فمن ذلك مثلاً: ما رواه ابن سعد فى الطبقات بسنده إلى أبى كثير الغبرى إنه قال: (سمعت أبا هريرة يقول: إن أبا هريرة لا يكتم، ولا (يكتب)..) [1].

١- طبقات ابن سعد جـ٢ ص٣٦٤.

ويعززون ذلك أيضاً بما رواه البخارى بسنده إلى وهب بن منبه عن أخيه أنه قال: (سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو (بن العاص)، فإنه كان يكتب ولا أكتب) [1].

على أن هذين الحديثين من أبى هريرة عن نفسه بكونه لا يكتب قامت إزاءهما آثار مماثلة تنم عن كونه كاتباً:

فقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده حديثاً عنه أنه كان يكتب، يقول ابن حنبل:

(حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة قال: كنا قعوداً (نكتب) ما نسمع من النبى ﷺ إذ خرج، فقال: ما هذا؟ أكتاب مع كتاب الله؟ أكتبوا كتاب الله وأخلصوه:

(قال (أبو هريرة): فجمعنا ما كتبنا فى صعيد واحد، ثم أحرقناه، فقلنا: يا رسول الله: أنحدث عن بنى إسرائيل؟

(قال: نعم، ولا حرج، فإنكم لا تحدثون عنهم شيئاً إلا وقد كان فيهم شئ أعجب منه) [2].

كذلك نرى الحاكم النيسابورى فى المستدرك يروى بسنده عن (الفضل بن الحسن بن عمرو بن أمية الضمرى، عن أبيه، قال: (حدثت عن أبى هريرة بحديث فأنكره، فقلت: إنى قد سمعته منك. قال: إن كنت سمعته منى فإنه (مكتوب) عندى.

(فأخذ بيدى إلى بيته فأرانى كتاباً من كتبه من حديث رسول الله ﷺ، فوجد (ت) ذلك الحديث، فقال: قد أخبرتك أنى إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندى) [3].

ومن جملة هذه الآثار نرى الكفتين متعادلتين فى كونه يكتب وكونه لا يكتب!

ولعل ما جاء من خبر عن كونه كان يكتب أدنى إلى القبول والتبرير:

١- البخارى: كتاب العلم.

٢- الذهبى: الميزان جـ٢ ص٥٦٥ ترجمة عبد الرحمن بن زيد.

٣- المستدرك: جـ٣ ص٥١١.

فقد ذكرت ثقات المصادر كالبخارى وابن سعد وغيرهما أن عمر بن الخطاب كان قد ولى أبا هريرة على البحرين، ثم عزله، ثم أراده أن يعود، فأبى.

وكذلك ذكروا أن مروان بن الحكم - وكان والياً على المدينة - كان يستخلف أبا هريرة مكانه إذا حج أو غاب.

ترى: أيمكن لخليفة فى منزلة عمر، وعقله، ووعيه، أن يولى على المسلمين رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ وهل يمكن لمروان بن الحكم الذى كان والياً على المدينة فى خلافة معاوية أن يستجيز لنفسه استخلاف رجل فى موضعه والياً على المدينة لا يقرأ ولا يكتب، متحملاً مسئولية ذلك أمام الخليفة الذى ولاه؟ أيمكننا أن نتصور هوان الولاية على المسلمين إلى هذا الحد فى زمن عمر بن الخطاب العادل الحريص، أو زمن معاوية بن أبى سفيان المستبصر الأريب؟

إن ولاية أبى هريرة فى زمن عمر، ثم فى زمن معاوية، تستلزم أن يكون ملماً بالقراءة والكتابة لأن شئون الولاية تستوجب ذلك، وليس لمجرد كونه حلية أو زينة.

كذلك فإن رواية أبى هريرة لكثير من الحديث والآثار تتسم بدقة وبلاغة تتجاوز درجة الرواية بالمعنى إلى حفظ موثق لا يعتمد على مجرد الاستظهار الوقتى الذى قد يتشوش بطول الوقت، وتعاقب العوارض المتغيرة، سواء فى طبيعة المرء، أو فيما يقع حوله، أو يلم به.

وأما كونه قد نفى عن نفسه أنه (يكتب) فقد يفسره ما جاء فى حديث الإمام ابن حنبل من كون الرسول ﷺ خرج عليه هو وصحبه إذ كانوا عاكفين على تدوين الحديث فصرفهم عن ذلك خشية أن يؤدى ذلك إلى خلط مدونات الحديث بمدونات القرآن، فلعله قد تراءى له عند ذلك أن لا يظاهر بتدوين الحديث. وبمضى الوقت بعد وفاة الرسول ﷺ رأى الناس يستوثقون بصاحب الرواية عن صاحب الصحف والمدونات فلم يشأ أن يظاهر بمدوناته، خاصة وأن بعض الخلفاء مثل عمر كان يشتد على من يدون الحديث، أو يكثر من روايته، تحرزاً للقرآن.

ونحن نلاحظ فى الحديثين اللذين ينفى فيهما كونه (كاتباً) أنه لا يشير قط إلى لفظ (القراءة)، فهل كان ذلك عن غير قصد؟ أما كان الأقرب مثلاً أن يقول: إن أبا هريرة لا (يقرأ) ولا (يكتب) بدلاً من قوله: لا (يكتم) ولا يكتب؟ وهل تبريره لكون عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر حديثاً منه لأنه يكتب تبرير صحيح؟! نحن نستشف من كلام أبى هريرة أنه كان عارفاً بالقراءة والكتابة، ولكنه يقصد من قوله أنه (لا يكتب) معنى خاصاً، ذلك أنه يريد أن يوهم بأنه يروى من ذاكرته فقط دون أن يظاهر بالتدوين لأسباب: منها أنه كان يستكثر من جمع الحديث ممن يستوثق بهم، ثم يفاجأ بمن قد يروى خلاف ما بلغه من ذلك بما يفضل عليه، فيجد فى الاحتجاج بكونه لا يكتب مبرراً للاعتذار عن نفسه أو عن مصدره. كذلك فإنه قد يوهم بقوله أنه لا يكتب أنه أيضاً لا يقرأ كتباً أو صحفاً يستمد منها مروياته، وأظهر تلك الصحف والكتب مدونات اليهود من صحائف التوراة وكتب الأنبياء وغيرهم التى كانت معروفة فى البيئة العربية ونهل منها غيره. ولعله لذلك كان يومئ من طرف خفى إلى إسرائيليات عبد الله بن عمرو بن العاص الذى شهر بمعرفته بالسريانية، وبأنه غنم زاملتين من كتب أهل الكتاب فى معركة اليرموك، وراح يحدث مما قرأ فى تلك الكتب!! فكأنه يريد أنه كان (يكتب) مما وجد فى تلك الكتب ليزيد بضاعته من الرواية والأثر، بينما ظل هو - أى أبو هريرة - بمنأى عن ذلك، لا يحيط بعلم تلك الأسفار، ولا ينقل منها.

وهنا قد يندفع المرء إلى التساؤل: إذا كان أبو هريرة، قارئاً كاتباً، يدون ما يسمع فى الصحف والأوراق، فكيف يسمع أو يقرأ نصاً يهودياً فيدونه فى صحفه، وينسبه عمداً إلى الرسول ﷺ، ولا يذكر أصله ومصدره؟ اللهم إلا أن يكون مدلساً أو مغرراً بالمسلمين؟

ونقول: إن احتمالات الخطأ لا تمتنع لمجرد كونه كاتباً، فقد يكون كذلك ومع ذلك يخطئ لأن أسباب الخطأ عديدة وكثيرة:

فمن ذلك مثلا أسباب متعلقة بالمصدر الذى تلقى عنه النص، فقد يكون ذلك المصدر حمل النص على الرسول ﷺ فتابعه أبو هريرة على غير علم بخطئه كما ذكر ابن قتيبة عنه فى مختلف الحديث.

ومن ذلك أسباب متعلقة بالوقت الذى دون فيه أبو هريرة ذلك النص فقد يكون دونه فى وقت متأخر فاشتبه عليه، أو فى حال من التشوش فلم يتمكن من التذكر الصحيح فنسبه إلى الرسول ﷺ غير عامد إلى وضع أو دس.

ومن ذلك أيضاً أسباب تتعلق بمنهجه فى التصنيف والتدوين، وترتيب صحفه وأوراقه، وهى فى ذلك الوقت بدائية ساذجة، وليس ببعيد أن يسهو فيدون النص غير منسوب إلى مصدره، وبمضى الوقت قد يرجع إلى مدوناته يسترجعه فلا يتبين كونه دخيلاً على أحاديث الرسول ﷺ.

ومن ذلك أيضاً أسباب تتعلق بالنقلة عن أبى هريرة، واحتمال السهو فى تدوينهم، أو فى روايتهم، أو فى طريقة حفظهم، أو طريقة استرجاعهم لمحفوظاتهم.

ومن ذلك أيضاً أنه ليس هنالك ما يمنع أن يقع فى سلسلة الإسناد عن أبى هريرة أو غيره من يضيف عن غير عمد أثرا علق بذهنه من قراءة أو سماع ومثل هذا كثير من بعض الرواة الثقات فضلاً عن غيرهم، ويعلم ذلك علماء الحديث خاصة إذا كان ظاهر الأثر الدخيل لا يوحى بصريح التعارض مع الأصول المسلمة الصحيحة. وسنرى فى النصين التاليين فى هذا السياق سقوط شبهة التعارض مع العقائد الإسلامية، كما سنرى أيضاً أنهما يتسمان بإيقاع حلو، وعبارة رائقة، وبنية جياشة مؤثرة، بما قد يجعل بعض الرواة يستبد به هواه فيرفعهما إلى الرسول ﷺ.

الفصل الثاني

أبو هريرة ينقل من أسفار يهودية أبو كريفية نقل منها كتبة الإنجيل

سنعرض هنا لنصين اثنين فقط من مرويات الصحابى المشهور أبى هريرة الدوسى، وكلا النصين جاءا فى جوامع الحديث المعتمدة عند المسلمين. وسنرى من هذه المناقشة أن النصين جميعاً منقولان من أصول إسرائيلية منحولة، ومع ذلك نسبا إلى رسول الإسلام، وحملا عليه، بما أعطى لخصومه سلاحاً زائفاً للتشكيك فى نبوته وصدقه، وحقّية وَحْيِهِ ورسالته.

أما أحد النصين فإنه يتعلق بصفة الجنة، وهذا قد جاء نقله حرفياً دقيقاً واستطعنا أن نصل إلى تسمية السفر اليهودى المنحول الذى نقله عنه الرواة فى الإسلام وقبل الإسلام.

أما النص الآخر فإنه يبدأ بقوله: (مرضت فلم تعدنى)، وهذا لم نستطع بعد أن نقطع بتسمية السفر اليهودى المنحول الذى نقله عنه الرواة فى المسيحية والإسلام، ولكننا موقنون تماماً بأصله اليهودى.

على أن كلا النصين المذكورين قد وردا فى إنجيل المسيحيين قبل الإسلام بقرون عديدة: ومن ثمة كان الدافع إلى هذا البحث للتعرف إن كان المسلمون قد تلقوهما من الإنجيل سواء عن اطلاع مباشر، أو بالواسطة، أم كانت لهم مصادر غير هؤلاء، وخاصة إذا كان الاهتداء إلى مثل هذه المصادر يساعد فى إقرار بعض الحقائق بين الفريقين، ويكفكف من غرور تأسس على باطل وسقوطه محتوم.

أولاً : فى صفة الجنة

ورد الحديث التالى منسوباً إلى النبى محمد ﷺ من طريق أبى هريرة، وقد اعتمده البخارى، ومسلم، والترمذى، وابن ماجه، وهو من أكثر الأحاديث شهرة وانتشارا بين المسلمين.

يقول الحديث: (**يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**).

وكان من الطبيعى أن نستشعر الدهشة والحرج معا عندما رأينا هذا الحديث بنصه وفصه فى بعض رسائل القديس بولس من أسفار العهد الجديد للمسيحيين، وبالتحديد فى رسالة كورنثوس الأولى، فى الآية التاسعة، من الإصحاح الثانى، حيث جاء النص هنالك هكذا: حسب الترجمة العربية للكاثوليك:

(ولكن كما (كتب) : ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر : ما أعده الله للذين يحبونه).

وجاء فى الترجمة العربية للبروتستانت، هكذا:

(بل كما هو (مكتوب) : ما لم تر عين، ولم تسمع إذن، ولم يخطر على بال إنسان : ما أعده الله للذين يحبونه).

واضح اذن أن النص الذى يحكيه بولس، والحديث الذى يرويه أبو هريرة، متطابقان تماماً بما يستثير الدهشة، ويستوجب البحث عن تفسير يكشف حقيقة الحال هنا وهناك.

إن بولس الذى نقل هذا النص إنما هو ذلك الرجل الذى استطاع بحق أن يكتسب صفة المؤسس الحقيقى للمسيحية بعد نهاية مسيح الناصرة وهو الذى قال بتأليهه،وابتدع القول بالخطيئة والفداء بدم المصلوب كفارة عما زعمه (الخطيئة الأولى)، وأنكر النبوة بعد المسيح، واغتصب لنفسه لقب (**رسول الأمم**)، وبدل الإنجيل الأول واضطهد تلاميذ المسيح الأولين، وأنكر دينهم، ونقض تعاليمهم، ورماهم بالكذب والتحريف.

ثم هو فى هذا النص الذى نقله لا يستهدف الوعد بجنة آتية فى عالم آخر بعد الموت وعند البعث والحساب، كما يدين بذلك المسلمون، وإنما هو يزعم أن ما جاء فى هذا النص الذى ينقله قد تم، وتحقق فعلاً بمجئ المسيح، ومن ثمة فلا ارتقاب، ولا انتظار لمثل ذلك مستقبلاً، إنه يقول بعقب ذلك النص مباشرة:

(فأعلنه الله لنا نحن بروحه. لأن الروح يفحص كل شئ حتى أعماق الله) [1].

فقد تم الإعلان إذن، وقضى الأمر، وتراءت الجنة، وتحققت واقعاً ملموساً فى نظره بمجئ المسيح، (إلهاً) متجسداً فى صورة بشر، لرفع الخطيئة، وإبطال الناموس، وتحقيق الفداء بدم ابن الله المزعوم.

وكان من الطبيعى أن يتبادر إلى الذهن تساؤل عما إذا كان أبو هريرة قد اطلع على كتب النصارى، أو على هذه الرسالة التى تضمنت هذا النص، أو إذا كان فى مكنته أن يفعل ذلك:

ولم يتيسر لنا موافقة هذا الاحتمال:

فالشك فى معرفة أبى هريرة بالقراءة والكتابة قائم، كما أن صلته بالنصارى بما يبرر مثل هذه الدعوى لا سبيل إلى إثباتها.

ومن ثمة كان الاحتمال الأرجح فى نظرنا معلقاً بقول بولس فى تقديم النص:

(كما هو - مكتوب -) إذ أشار بذلك إشارة واضحة صريحة إلى وجود أصل كتابى معتمد نقله منه، فما الذى يمنع أن يكون أبو هريرة أيضاً قد عرف ذلك الأصل، ونقل منه، أو بلغه ذلك بوسيط؟

لكن، ما عسى أن يكون ذلك الأصل، ومن عسى أن يكون ذلك الوسيط لأبى هريرة فى الاطلاع عليه، والنقل منه؟

وهنا كانت عقدة الإشكال: سواء فى إثباته بالنسبة لبولس، أو لأبى هريرة:

لقد راح علماء النصارى يقلبون صفحات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد،

١- كورنثوس الأولى: ص٢ : ١٠.

ويتفحصون النصوص، علهم أن يقعوا على الموضع الذى اقتبس منه بولس نصه المذكور، فانقلبوا بالخيبة، ولم يأتوا بغناء. وهنالك افترقوا:

فذهب فريق منهم إلى أننا نجد بعض الاقتباسات فى العهد الجديد ترد على أنها من أسفار العهد القديم، ومع ذلك لا نعثر على أصولها فيه، ثم نتبين بعد ذلك أن بعض هذه الاقتباسات منقولة من أسفار يهودية منحولة كانت تعتبر وقت تدوين رسائل العهد الجديد معتمدة صحيحة، وفى هذه الحالة لا إشكال، وإنما الإشكال عندما لا نجد النص المقتبس فى أسفار العهد القديم الحالية، ولا نهتدى فى نفس الوقت إلى سفر منحول كأصل نرده إليه [1].

وسنرى رجحان هذا الفريق بشأن النص الذى بين أيدينا.

أما الفريق الثانى فقد رأى فى حال تعذر العثور على أصل للنص احتمال أن يكون ذلك النص غير حرفى، وانما جاء بالمعنى، أو خضع لضرب من ضروب الدمج والتوليف لبعض المعانى والألفاظ فى العهد القديم ليعطى الكاتب بذلك مضموناً متسقاً لما استشفه من تعاليم الكتاب، أو أخباره، ولم يستبعدوا احتمال أن يكون ذلك عن تقليد سلكه القدماء وإن كنا لا نعلمه [2]. على أن هذا الاتجاه لا ينطبق على النص الذى بين أيدينا كما سنرى.

أما الفريق الثالث فقد تعسف فادعى إحالة بولس إلى النص الوارد فى سفر إشعياء فى الآية الرابعة من الإصحاح الرابع والستين حيث جاء النص هكذا: فى الترجمة العربية الكاثوليكية:

(إنه منذ الدهر: لم يسمعوا، ولم يبلغوا، ولم ترعين، ما خلاك يا الله، ما تصنع للذين ينتظرونك).

وقد جاء هذا النص أيضاً فى الترجمة العربية للبروتستانت هكذا:

(ومنذ الأزل: لم يسمعوا، ولم يصغوا، لم تر عين إلها غيرك يصنع لمن ينتظره).

١- The New Bible Dic Art. Canon of the O. T., P. 190 - 191.

٢- Ibid.

وواضح كل الوضوح أن نص إشعياء هذا مختلف تمام الاختلاف عن النص الذى اقتبسه بولس وأبو هريرة: فى موضوعه، وطبيعة عناصره، وأبعاده:

فالنص عند إشعياء يستهدف التنويه بالوحدانية، بأن الإله الحق يعمل من أجل المؤمنين به، بينما آلهة الوثنيين المشركين لا تعمل لعُبّادِها شيئاً، وأن عجزها قائم منذ كانت الخليقة، وإلى آخر الدهر.

أما النص الذى اقتبسه معلم النصارى، وإمام المسلمين، فإنما يتعلق بصفة الجزاء الفائق، والفضل العظيم، والنعمة الباذخة، التى أعدها الله تعالى للمؤمنين به، والصالحين من عباده. ثم حملها كل منهما على الوجه الذى يتفق مع دينه واعتقاده.

فالنصان مختلفان كل الاختلاف.

فإن كان أصحاب هذا الاتجاه يردون النص عند بولس إلى هذا النص عند إشعياء مع إدراك هذا التفاوت بين النصين: فهم متجاوزون.

وإن لم يكونوا مدركين لهذا التفاوت فهم مخطئون.

ولا يبقى لهم إلا أن يحددوا النسخة التى يعتمدونها لتبرير دعواهم:

فإن كانت النسخ التى بين أيدينا، فهم على ما ذكرنا.

وان كانت هنالك نسخة غير ذلك، فعليهم أن يذكروا تلك النسخة، وبينتهم منها.

وكل ما علمناه مما اطلعنا عليه بهذا الشأن دال على أنهم لا يحيلون إلى نسخة غير التى بين أيدينا، ومن ثمة فهم متجاوزون، أو مخطئون، ولا عذر لهم فى كليهما.

ومع ذلك فليس ببعيد أنهم كانوا يتابعون تقليدا يقول برد اقتباس بولس إلى النص الوارد فى إشعياء على أساس ترجمة معينة، فلما اختلفت الترجمات بظهور ترجمات جديدة أكثر دقة وانضباطاً ظلوا على قولهم القديم، دون مراعاة لاختلاف الترجمات الحديثة، أو المعاصرة، عن الترجمة القديمة التى اقترن بها ذلك الادعاء:

الدليل على ذلك: أننا أثناء تصفحنا لكتاب مزور يدعى (إنجيل برنابا) من نتاج النصف الأخير من القرن الرابع عشر، أو مبتدأ القرن الخامس عشر، على ما تومئ

إليه بعض القرائن التى وردت فيه، رأيناه يضع على لسان المسيح حديثاً طويلاً فى صفة الجنة، وأجرى على لسانه نفس النص الذى جاء به بولس ثم أبو هريرة من بعد، وأورده هكذا:

(ولقد قال عن هذه المسرات (إشعياء) النبى:

(ولم ترعينا إنسان، ولم تسمع أذناه، ولم يدرك قلب بشر، ما أعده الله للذين يحبونه) [1].

وكان من عجائب التوفيق أننا وجدنا نفس النص بحروفه أثناء اطلاعنا على بعض تفاسير الكتاب المقدس، فقد رأينا المفسر الإنجليزى المشهور (ماثيو هنرى Matthew Henry) ١٦٦٢ - ١٧١٤م فى تفسيره لهذا النص من رسالة بولس يذكر هو أيضاً أنه منقول من سفر إشعياء، لكنه يحدد مصدره فيذكر أن ذلك كان (فى الترجمة السبعينية)، ثم نقل النص بحرفه من سفر إشعياء فى تلك الترجمة فإذا هو فعلاً مطابق تماماً لصورته عند الرجلين فى المسيحية والإسلام معاً:

(إنها الحكمة التى لا يمكن إدراكها إلا بالوحى، مصداقاً لقول إشعياء النبى:

(ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، ما أعده الله لاولئك الذين يحبونه، ويصبرون له، ويترقبون رحمته).. هكذا فى: (السبعينية Lxx).

وهنا نتساءل: إذا صح أن النص فى سفر إشعياء قد ترجم فى الترجمة اليونانية السبعينية Septuagint على هذا النحو الذى ذكره كل من مؤلف إنجيل برنابا، والمفسر الإنجليزى المذكور، وكان ذلك فى تلك الترجمة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، كما هو معلوم ومشهور، فلماذا إذن يختلف العلماء حول أصل النص الذى نقله بولس؟

السبب فى ذلك على ما نعتقد أن تلك الترجمة السبعينية لم تكن تلتزم النقل الحرفى، واتسمت فى مواضع كثيرة منها بترجمة المعنى مع بعض التصرف أحياناً حسب طبيعة النصوص، وما قد يعرض من تعبيرات فى الأصل العبرانى يتعذر نقلها،

١- إنجيل برنابا: ترجمه إلى العربية د. خليل سعادة. ط صبيح - اصحاح ١٦٩ - ٨ : ٩، ص٢٥٩.

أو وضع ما يناظرها بدقة فى اللسان اليونانى، فكان من الطبيعى أن يقع أحياناً إجمال لنصّ معين ليتيسّر نقله باليونانية، أو يحدث بسط و تفسير لنص آخر ليتضح مغزاه، وهنا قد يستعين المترجم ومن يكلفونه بذلك باقتباس نص من بعض القراءات والتقاليد يضمنه فى الترجمة لما قد يراه فيه من مؤثرات وجدانية أو بلاغية توافق المضمون الذى يقوم بنقله إلى اليونانية.

لذلك فإننا عندما نقارن النص الذى نحن بصدده فى سفر إشعياء الحقيقى، مع الصورة التى كرها بولس وابو هريرة، والتى توافق عين النص الذى نقله كل من كاتب برنابا وماثيو هنرى المفسر: نكتشف التصرف فى الترجمة السبعينية، وأن المترجم قد اقتبس فى هذا الموضع نصاً خارجياً مفارقاً تماماً للنص الأصلى المفترض فيه أنه يترجمه.

كذلك فانه معلوم أيضاً أن نسخ الترجمة السبعينية قد خضعت لبعض التغيرات، فلم تعد متطابقة، واختلف بعضها عن بعض، كما أثبت بعض الباحثين.

ومن ثمة فلعله كان من الطبيعى إذن ألا يعول العلماء على السبعينية بدرجة تذكر فى شأن المصدر الذى اقتبس منه بولس.

ومع ذلك، فلو سلمنا أن السبعينية فى بعض نسخها كانت مصدر بولس فى النص المذكور، فعندئذ يبرز لنا تساؤلان:

الأول: إذا كانت السبعينية مصدر بولس، فهل كانت أيضاً مصدر أبى هريرة، أو مصدر وسيطه؟

الثانى: مهما تكن إجابة السؤال الأول يبقى أن نسأل عن المصدر الذى اقتبس منه مترجم السبعينية النص الذى استحل لنفسه أن يضعه موضع نص مقدس كتبه نبى من أبرز وأشهر أنبياء بنى إسرائيل.

إننا نعرف قصة الترجمة السبعينية، ونعرف أيضاً أن الاطلاع عليها فى أصلها اليونانى، والاقتباس منها، والنقل عنها، ميسور تماماً بالنسبة لبولس، لانه كان يهوياً، وكان عارفاً باللسان اليونانى، ورحلة حياته كانت فى جو يونانى خالص، وبعد ذلك هى

مبذولة له، وقائمة بين يديه:

لكن ذلك كله بالنسبة لأبى هريرة ممتنع تماماً: لأنه غير متعلم، أو فى حكم غير المتعلم بالنظر إلى نشأته وبيئته التى تقلب فيها، ومن باب أولى فلا علم له باليونانية أو العبرانية. ووجود المصادر فى هاتين اللغتين معدوم الجدوى تماماً بالنسبة إليه، وإلى من كان على شاكلته.

ومن ثمة فلا يستطيع أبو هريرة أن يصل إلى ذلك إلا بوسيط.

فمن عسى إذن أن يكون ذلك الوسيط؟

لابد إذن من صحبة من يعرف ذلك من اليهود والنصارى، لأن المسلمين آنذاك لم يكن فيهم من يبلغ ذلك المبلغ.

لكن النصارى مستبعدون من هذا الاحتمال لما ذكرنا من قبل من أننا لا نعرف له صحبة مع أحد منهم، ولا كان أحد من مبرزيهم بين المسلمين من أصحاب أبى هريرة.

إذن لا يبقى إلا أن يكون وسيط أبى هريرة من مسلمى اليهود.

واشتهر من مسلمى اليهود رجلان كبيران: عبد الله بن سلام، وكعب بن ماتع الحميرى المشهور بكعب الحبر، أو كعب الأحبار.

وكان عبد الله بن سلام حبرا جليلاً، وقوراً، محتشماً، مقتصدا فيما يقول:

وكان كعب الأحبار طموحاً متصدراً، يحب المحاضرة والتعليم، وإفشاء معارفه بالتوراة وكتب الأنبياء من بنى إسرائيل، وبث حكم المتقدمين ممن قرأ عنهم من هنا أو هناك.

ولا نعرف رجلاً صحبه أبو هريرة، وألح فى مباحثته، ومساءلته، واستنبائه عما فى التوراة مثل كعب الأحبار، وهو نفسه الذى شهد لأبى هريرة بتميزه بالشغف بعلم ما فى التوراة، واستظهار ذلك لوقته بمجرد الاستماع.

وهنا: لا يبعد أن يكون كعب هو وسيط أبى هريرة إلى النص المذكور فى صفة الجنة.

ولكن، وسيطه إلى ماذا؟ إلى الترجمة السبعينية فى نصها اليونانى، أم إلى الأصل الذى اقتبس منه مترجم السبعينية؟

أما أن يكون كعب مطلعاً على السبعينية فى نصها اليونانى فهذا فى نظرنا ممتنع لأننا فيما اطلعنا عليه من آثار كعب لا نجد ما ينم عن احتمال ذلك بحال.

وأما أن يكون مطلعاً عليها فى اللسان العربى فلا نعلم أن السبعينية نقلت فى زمنه إلى اللسان العربى، ولا أن ما كان باللسان العربى من التوراة آنذاك كان بالحتم عن السبعينية اليونانية، فقد كان اليهود فى اليمن والجزيرة العربية بجملتها لا يزالون محتفظين بأصولهم العبرانية للتوراة بدليل حديث أبى هريرة الذى قال فيه: (كان أهل الكتاب يقرأون التوراة (بالعبرانية) ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام)، فما الحاجة إذن إلى تعويل اليهود على السبعينية التى تخلوا عنها، وقرفوها بالخلل والفساد بعد ظهور المسيح، ونزاع النصارى معهم بشأنه ولجوئهم إلى تأويلات رآها اليهود باطلة فاسدة، أملى لهم فى زيفها وتناقضها كونهم فى نظر اليهود معتمدين على تلك الترجمة اليونانية التى كانت بالمعنى لا بالنص، ودخلها من ثمة تحريف كثير؟!

لا حاجة إذن بيهود العرب الحائزين على الأصل العبرانى أن يعتمدوا ترجمة يونانية أدانوها منذ قرون، وهى مع ذلك دخلتها شوائب النقل والنسخ، حتى قل التطابق بين نسخها بعضها وبعض.

لا يبقى إذن إلا أن يكون وسيط أبى هريرة قد نقل ذلك النص عن سفر يهودى بالعبرانية أو الآرامية.

ونحن لا ندرى بالتحديد من هو وسيط أبى هريرة فى هذا النص بالذات، ولكننا نرجح أنه كعب الأحبار لما ذكرنا من شأن أبى هريرة معه، ولأنه كان من أحبار اليهود، على علم واسع بالتوراة حسب حدود ذلك العلم فى زمنه، وإلمام بالتراث الدينى لبنى إسرائيل. واحتمال اطلاع كعب على أصول لم تصلنا أمر وارد، وفرض راجح، واستبعاد ذلك مجازفة جاهلة.

وإذا كان وهب بن منبه الصنعانى الذى كان بعد كعب يصرح بأنه قرأ عشرين كتاباً

لا يعرفها إلا الأقلون غير سبعين من كتب التوراة والأنبياء، فما الذى يمنع كعبا، وقد كان من علماء اليهود، وأرسخ قدما من وهب فى معرفة كتبهم أن يعلم ذلك، ويزيد عليه؟

لذلك كان من الضرورى أن نبحث عن مصدر آخر لحديث أبى هريرة يطلع عليه وسيطه - سواء كان كعب الأحبار على ما نرجح، أو غيره - خلاف الترجمة السبعينية، والأصل العبرانى للتوراة.

وهذا المصدر المقترح حتمى أيضاً بالنسبة لبولس، إذ لا نظنه يقتبس نصاً كهذا من السبعينية وهو يعلم جيداً أن الأصل العبرانى الصحيح يباينه ويختلف عنه، وهو مطلع عليه، عارف بحقائقه منذ كان فى مرحلة الطلب.

لذلك كان من الضرورى أن نبحث عن بينة لإثبات ذلك.

وبالفعل استطعنا أن نصل إلى دليل صحيح يثبت أن النص الذى اقتبسه بولس فى رسالة كورنثوس الأولى فى الآية التاسعة من الإصحاح الثانى إنما هو نقل حرفى دقيق من سفر منحول يسمى (سفر إيليا). وهو أحد الأسفار اليهودية، غير القانونية، التى ظهرت عند اليهود قبل المسيح بحوالى قرنين، وظلت فاعلة ومؤثرة تأثيراً ظاهراً فى عصر الرسل أى الحواريين من بعد المسيح إلى الحد الذى جعل كتبة العهد الجديد يقتبسون منها ككتب إلهية صحيحة، وكان بولس أحد هؤلاء المتأثرين بهذه الأسفار المنحولة فى نظر الكنيسة فيما بعد.

وكذلك اقتبس من سفر (أخنوخ) كابت رسالة يهوذا على ما سنرى فى هذا التقرير الذى يتضمن الدليل الصحيح المتعلق بالنص موضوع المناقشة.

وقد جاء هذا التقرير المذكور فى كتاب قديم يعرف باسم (البيذاليون Pedalion) أى دفة المركب، ويشتمل على مجموعة القوانين المقدسة التى وضعها الرسل والمجامع والآباء للكنيسة المسيحية، وطبع فى شيكاغو ١٩٥٧م.

وقد نقل هذا التقرير إلى العربية (الأرشمندريت): (حنانيا إلياس كساب) فى كتابه (مجموعة الشرع الكنسى: أو: قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة)، أخرجته منشورات النور بيروت ١٩٨٥م.

وهذا هو نص التقرير فى الترجمة العربية عن (البيذاليون) [١]:

(ظهر فى القرون الأولى للمسيحية عدة كتب وضعها الملحدون، ونسبوها زورا إلى مؤلفين مشهـود لهم بحسن العبادة والقداسة، تضليلاً للبسطاء، ومنها الإنجيل المنسوب إلى القديس الرسول (توما) وضعه قوم من المبتدعين المانيين. ورؤيا إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ورؤيا والدة الإله. والكتب غير القانونية لإيليا، وإرميا، وأنوخ (= أخنوخ Enoch) وغيرهم من الأنبياء والبطاركة. وهناك كتب شوهها المبتدعون بالتحريف والتزوير: ككتاب الدساتير الرسولية كما نقلها (إقليمس). ولهذا السبب رفضها المجمع المسكونى السادس فى قانونه الثانى.

(والكتب غير القانونية (الأبوكريفية) عديدة: منها: رؤيا آدم، ورؤيا لامك، وصلاة يوسف الكلى الحسن. ورؤيا وعهد موسى. ومزامير داود وسليمان. ورؤيا صفنيا. وكتاب عزرا الثالث. ورؤيا بولس. وتعاليم إقليمس واغناطيوس وبوليكربوس وكتاب الرسل سمعان وديماس وكلاوبا. والإنجيل السابع. وإنجيل فليبس. وطفولة المسيح. وأعمال اندراوس. وغيرها مما يعسر إحصاؤه.

(وبعض الكتب غير القانونية دخل عليها التحريف والتزوير كالكتب المنسوبة إلى (إيليا وإرميا وأخنوخ) وغيرهم من البطاركة، وقد كانت على ما يظهر خالية من التحريف فى عهد الرسل، ولذلك استشهد القديس بولس الرسول بقول لإيليا (**ولكن كما كتب: ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر: ما أعده الله للذين يحبونه**) (١ كور: ٩ : ٢). وقد أثبت ذلك بالبرهان الأرشيد ياكون غريغوريوس الذى خدم البطريرك طاراسيوس وهو عم (أو خال) العالم الكبير فوتيوس، وقد تبعه هذا فى رأيه، لأن هذه الآية لم توجد فى كتب العهد القديم بالحرف الذى رواها فيه الرسول بولس. ويقول الأرشيد ياكون غريغوريوس والعالم المدقق فوتيوس: إن الرسول بولس استشهد أيضاً بآية من كتاب إرمياء غير القانونى، فى رسالته إلى أهل أفسس ولذلك يقول: (استيقظ أيها النائم، وقم من بين الأموات، فيضئ لك المسيح)

١- الأرشمندريت: حنانيا كساب: مجموعة الشرع الكنسى ص٨٦٣ - ٨٦٤.

(٥ : ١٤). واستشهد القديس الرسول يهوذا فى رسالته الجامعة بنبوة أخنوخ، وهى من الكتب غير القانونية: (وقد تنبأ على هؤلاء أيضاً (أخنوخ) سابع آدم حيث قال: هوذا يأتى الرب فى ربوات قديسيه ليجرى القضاء على جميعهم، ويحج جميع المنافقين منهم على كل أعمال نفاقهم التى نافقوا بها، وعلى جميع الفظاظات التى نطق بها عليه أولئك الخطأة المنافقون) (يهوذا: ١٤ - ١٥). ويقول أبو ليناريوس أن قد وجدت كتب غير قانونية حتى فى عهد موسى كما يظهر من سفر العدد [١] : (ولذلك يقال فى كتاب حروب الرب عبروا واهب عبور العاصفة الخ) (عدد: ٢١ :١٤) [٢].

ونرى من سياق هذا التقرير ما يستدعى أن نقدم تعريفاً بالوقت الذى ظهر فيه اكتشاف هذا السفر المنحول، والإقرار بنقل بولس منه:

فالأرشيد ياكون (غريغوريوس) الذى اكتشف هذا السفر، ووجود النص الذى اقتبسه بولس فيه، كان يعمل معاوناً للبطريرك (طاراسيوس) بطريرك القسطنطينية الذى ترأس المجمع المسكونى السابع (المسكونى الثانى فى نيقية) بالقسطنطينية سنة ٧٨٧م على ما ذكر بعضهم، أو سنة ٧٨٣م على ما ذكر آخرون يدعون أنهم مدققون، وذلك فى عهد الامبراطور قسطنطين السادس ووالدته إيرينى:

وهذا يعنى أن اكتشاف السفر المذكور كان فى أواخر القرن الثامن الميلادى، أى بعد منتصف القرن الثانى للتاريخ الهجرى عند المسلمين:

فالتاريخ الميلادى: ٧٨٣ يتوازى بسنة ١٦٧ للهجرة

وكذلك مثله: ٧٨٧ يتوازى بسنة ١٧١ للهجرة

وهكذا يتضح أن هذا الاكتشاف باكر جداً بالنسبة لبحوث المحدثين والمعاصرين فى هذه القضية، وكذلك بالنسبة لمدونات الحديث الإسلامى المعتمدة.

١- هذا ادعاء غوغائى غير علمى لأن الأسفار الخمسة لموسى لم تنقل إلينا بحرفها ونصها كما يتوهم الجمهور، وانما الذى بين أيدينا اليوم أسفار دونت بعد زمن موسى بقرون عديدة تشتمل مضمونا تقريبياً وليس نصيا أو حرفياً لتعاليمه، كما أقر بذلك علماء الاختصاص فى الكنيسة الكاثوليكية. ومن ثمة فالسفر المنحول المدعو (كتاب حروب الرب) ليس من نتاج زمن موسى، بل من نتاج عهد آخر بعد ذلك، وجاءت الإشارة إليه من جهة الكاتب الذى دون هذه الأسفار المقدسة من بعد، وكان على علم به.

٢- هذا النص من سفر العدد حسب الترجمة العربية للكاثوليك، ويحسن مراجعة الترجمة العربية للبروتستانت حيث تختلف عنها بعض الشئ.

ويستفاد من ذلك اليقين بوجود نسخ، وإن تكن نادرة، من ذلك السفر حتى أواخر القرن الثامن الميلادى الثانى للهجرة، أى قبل تدوين جوامع الحديث الإسلامى المعتمدة، التى بدأت بالصحيحين للبخارى ومسلم فى القرن الثالث الهجرى - التاسع للميلاد - باستثناء المدونات التى كانت قبل ذلك كالموطأ وغيره مما سبقه أو لحق به حتى التاريخ المذكور.

ومن باب أولى يثبت من ذلك أن هذا السفر كان موجوداً على نحو من الأنحاء قبل ذلك فى القرن الأول الهجرى، وفى النصف الأول من ذلك القرن بالتحديد، حيث توفى كعب حوالى سنة ٣٢ للهجرة، أى سنة ٦٥٢ للميلاد أو بعد ذلك بقليل. كما توفى أبو هريرة أيضاً حوالى سنة ٥٨هـ أى ٦٧٧م ومن بعدهما وهب بن منبه الصنعانى المجتهد فى تحصيل الإسرائيليات سنة ١١٠هـ أى ٧٢٨م، أو ١١٤هـ أى ٧٣٢م، وكل ذلك سابق بوقت طويل على اكتشاف المسيحيين لهذا السفر، واشتماله على النص المذكور.

ولا شك أن منزلة ذلك القس رئيس الشمامسة الذى اهتدى إلى ذلك الاكتشاف بمقربة من البطريرك، دون إنكار أو مدافعة من ذلك المقام الدينى الأكبر فى ملتهم، يوطد دعواه، ويعزز برهانه بسند وثيق، إذ كان ذلك لا يتعلق بعوارض عابرة، وإنما بأمر جد خطير يمس نصاً مقدساً عندهم لا يحتمل أدنى إهمال أو تغاض عن تحقيق ذلك، والتثبت من صحته.

يضاف إلى ذلك أيضاً شهادة أخرى من شخصية ضخمة جاءت تعزز تلك الدعوى، وتراجع السند، وتضيف إليه، وتلك شهادة (فوتيوس) المشار إليه تارة بأنه (العالم الكبير) وتارة بأنه (العالم المدقق)، وهو ابن أخ أو أخت القس صاحب الاكتشاف على ما هو مذكور.

وهذا العالم فيما نظن هو فوتيوس أسقف صور فى القرن التاسع الميلادى، وكان من أعوان البطريرك طاراسيوس الذى كان يعمل فى خدمته مكتشف السفر. وقد قيل إن فوتيوس هذا قد تسنم سدة البطريركية بعد ذلك.و يعتبر عند الغربيين من أعظم علماء ومشرعى الكنيسة المسيحية، وله فى ذلك كتابان مشهوران (ففى سنة ٨٨٣م أصدر فوتيوس كتابيه: (مجموعة القوانين) و (نوموقانون) وسمى الثانى (بروقانون) إذ وضعه

قبل (القوانين). وقد أصدر مؤلفه الثانى بأمر قسطنطين السادس، ثم أعيد النظر فيه، وحل محل كتاب يوحنا الأنطاكى بالاسم ذاته: (نومو قانون)، لأنه أحدث عهداً، وأفضل منهجاً) [1] وقد ظلت كتبه وآثاره حجة تذكر بالثقة والتقدير لدقته وتثبته.

فإذا كان هذا هو المشار إليه بأنه ابن اخ أو أخت القس الآنف ذكره، وأنه تابعه، وعزز دعواه، فأى شهادة، أم أى دليل يطلب بعد ذلك؟!

وعلى أية حال، فسواء كان فوتيوس الذى عزز دعوى القس المذكور هو هذا أو غيره، فإنه موصوف فى النهاية بكونه عالماً ومدققاً، وهى نفس الصفات التى تطلق على المشرع الكنسى الذى ذكرناه. كما أن فوتيوس الذى عزز القول بشأن سفر إيليا قد أضاف أيضاً إلى ذلك اكتشاف سفر آخر هو (سفر إرمياء غير القانونى) وأثبت أيضاً أن بولس قد اقتبس منه، كما اقتبس من سابقه، وكذلك أضاف إلى السفرين المذكورين سفراً ثالثاً هو (سفر أخنوخ) وأثبت أن كاتب رسالة يهوذا هو أيضاً قد اقتبس منه.

فإذا أضفنا إلى ذلك القيمة العلمية والدينية الكبرى للمصدر الكنسى المسمى (البيذاليون) وهو من أقدم جوامع القوانين الكنسية والذى نقل التقرير الذى أوردناه منه أحد كبار رجال الكهنوت فى الكنيسة الأنطاكية فى كتابه (مجموعة الشرع الكنسى)، وقدم لذلك الكتاب بطريرك كنيسة أنطاكية وسائر المشرق موثقاً لمضمونه - نقول إذا أخذنا كل ذلك فى الاعتبار اتضح لنا مدى قوة الدليل الذى توصلنا إليه، ومدى أصالته التاريخية والدينية على السواء.

وعلى ذلك يثبت بالدليل القاطع اطلاع بعض المسلمين على سفر إيليا المنحول، وعنه جاء النص الذى نسب إلى الرسول ﷺ فى صفة الجنة.

هذا المسلم الذى اطلع على ذلك السفر المنحول ونقل منه النص، هو فى تقديرنا كعب الأحبار اليهودى الذى أسلم فى عهد عمر بن الخطاب، وتعلق به أبو هريرة صاحب الرسول ﷺ، يتلقى منه تعاليم التوراة، ومأثورات الإسرائيليين، فى شغف وإلحاح نوه بهما كعب ذاته، وأشبع بسببهما فضول أبى هريرة.

ومع ذلك فقد لا يخلو من فائدة أن نشير أيضاً إلى أن (وهبا بن منبه) أشهر

---

١ - حنانيا كساب: مجموعة الشرع الكنسى ص٤١٤.

المجتهدين فى تحصيل الإسرائيليات بعد ابن عباس وأبى هريرة، كان من حملة الحديث الذين أخذوا عن أبى هريرة وابن عباس، وهو الذى فاخر باطلاعه على عشرين كتاباً لا يعلمها إلا الأقلون خلاف السبعين من كتب التوراة والأنبياء التى ذكر اطلاعه عليها. فهل كان فى هذه العشرين التى لا يعلمها إلا الأقلون سفر إيليا المنحول؟ مهما يكن الجواب فلا بأس علينا من طرح السؤال بشأن تلميذ أبى هريرة!!

وأخيراً، فلعله قد انكشف تماماً ذلك السر فى تكرار نص بلفظه وحرفه دون نقص أو تزيد فى إنجيل النصارى وحديث إسلامى نسب زوراً إلى نبى المسلمين ﷺ، الذى ما نال منه أعداء دينه، كما ينال منه تابعوه من ذوى الغفلة وأرباب المنفعة!

ثانياً: (مرضت فلم تعدنى)

روى مسلم فى صحيحه بسنده إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أن الله عز وجل يقول يوم القيامة:

(يا ابن آدم: (مرضت) فلم تعدنى!

(قال: يا رب، وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟

(قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟

(يا ابن آدم: (أستطعمتك) فلم تطعمنى!

(قال يا رب،وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

(قال أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟

(يا ابن آدم: (استسقيتك) فلم تسقنى!

(قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

(قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى؟).

هذا الحديث المنسوب إلى نبى الإسلام جاء نصه موسعاً فى إنجيل (متى) على لسان المسيح فى الآيات من ٣١ حتى ٤٦ من الإصحاح الخامس والعشرين منه:

(ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده، وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسى مجده. ويجتمع أمامه (جميع الشعوب)، فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعى الخراف من الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم:

(لأنى (جعت) فأطعمتمونى.
(عطشت) فسقيتمونى.
(كنت غريباً) فآويتمونى.
(عريانا) فكسوتمونى.
(مريضاً) فزرتمونى.
(محبوساً) فأتيتم إلى).

(فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب، متى رأيناك (جائعاً) فأطعمناك، أو (عطشاناً) فسقيناك. ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك ومتى رأيناك (مريضاً) أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك، ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم.

(ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته. لأنى جعت فلم تطعمونى. عطشت فلم تسقونى. كنت غريباً فلم تأوونى. عرياناً فلم تكسونى. مريضاً ومحبوساً فلم تزورونى.

(حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوا: فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى، والأبرار إلى حياة أبدية).

ونلاحظ من حديث أبى هريرة أن الخطاب الإلهى، موجه بصفة عامة إلى البشر كافة دون تصنيف لهم، أو تعيين طائفة منهم، ومن ثمة لم يشر إلى جزاء بالثواب أو

العقاب لفريق من هنا، أو فريق من هناك.

أما النص الإنجيلى فيصنف الناس فريقين: فريق الأبرار، وفريق الأشرار، مشيراً إلى جزاء معين لكل من الفريقين.

ثم نلاحظ بعد ذلك: أن الحديث الإسلامى يشتمل على ثلاثة عناصر فقط هى بالترتيب: المرض، فالجوع، فالعطش.

بينما يشتمل النص الإنجيلى على ستة عناصر كاملة، منها الثلاثة المذكورة فى النص الإسلامى، وقد جاءت تلك العناصر الستة هكذا بالترتيب.

الجوع فالعطش، فالغربة، فالعرى، فالمرض، فالحبس.

ولا تحتفظ الثلاثة الواردة فى حديث أبى هريرة بترتيبها فى النص الإنجيلى، بل تتوزع خلال عناصره الستة، وهذا ما سنرى مغزاه فى هذا السياق.

لكن يلفت نظرنا بعد ذلك فى النص الإنجيلى قوله على لسان المسيح حاكياً عن نفسه فى يوم الديونة: (ويجتمع أمامه جميع الشعوب)، فهذه الآية تكشف لنا عن كون النص غير أصيل – على الأقل – بصورته الحالية فى الأصل الأول لهذا الإنجيل:

فالنص الذى نناقشه من إنجيل (متى):

وهذا الإنجيل بإقرارهم كتبه لليهود بالتحديد (متى) اليهودى، العشار، الذى تبع المسيح، ودونه لهم بلغتهم، وحرص فيه على أن يستشهد بأقوال الأنبياء ليؤكد لهم أن هذا هو المسيح الذى انتظروه قد جاء من أجلهم.

كما أنه هو الوحيد الذى أكد أن المسيح لم يأت لنقض ناموس موسى، أو كتب خلفائه الماضين على نهجه بل جاء بالتصديق والتثبيت، وانفرد بنقل مقالته: (ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل) [١].

كما أنه هو أيضاً الذى أورد قوله لتلاميذه: (إلى طريق (أمم) لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) [٢].

١- متى: ص٥ : ١٧.
٢- متى: ص١٠ : ٥ - ٦.

وهذه الشواهد الصريحة دالة على أن متى عندما كتب الإنجيل كان واعياً تماماً بمغزى دعوة المسيح، وحدود رسالته، وإنه لا يتجاوز شريعة موسى، ولا نطاق شعب إسرائيل بحال.

ولو أنه رام تبشير الأمم لما فاته أن ذلك يوجب عليه رفع شريعة موسى ونقضها ومن ثم فما كان ليصدر منه ما صدر من كونه مكملاً ومثبتاً وما كان ليصرح لتلاميذه بما صرح به من قوله: (إلى طريق (الأمم) لا تمضوا)، بل كان بالأحرى يحبذ ذلك، ويغرى به، أو فى أقل القليل يصمت ولا يصرح بما ينقض تطلعاته إلى تبشيرهم.

ثم كيف يكون ذلك وهو يلزمهم إلزاماً بحفظ ناموس موسى والعمل به عندما قال لهم: (على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون: فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه) [1]، وهذا أيضاً فى صلب الإنجيل ذاته؟!

ومع ذلك، فلو لم يوجد فى الإنجيل كله إلا قصته مع المرأة الكنعانية لكفت كل الكفاية فى إثبات أنه ليس من تبشير الأمم بسبيل، وها هى ذى القصة:

(وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمنى يا سيد يا ابن داود. ابنتى مجنونة جداً. فلم يجبها بكلمة.

(فتقدم تلاميذه، وطلبوا إليه قائلين: اصرفها، لأنها تصيح وراءنا.

(فاجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

(فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعنى!

(فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب!

(فقالت: نعم يا سيد، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها.

(حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيم إيمانك، ليكن لك كما تريدين) [2].

١- متى: ص٢٣ : ٢ - ٣.

٢- متى: ص١٥ : ٢٢ - ٢٨.

فها هو ذا يصرح بما لا ينبغى أن يدع مجالاً لجدل أو مناقشة معلناً حدود عمله، ونطاق رسالته بقوله: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة).

وها هو ذا أيضاً يصرح بما يؤكد رفضه للأمم، ونفوره منهم، بقوله: (ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب)، فالذى يبلغ به التشبث والالتزام إلى الحد الذى يجعله يصف غير الإسرائيليين بأنهم (كلاب) ممتهنا بذلك ما ينبغى للأنبياء من أدب ووقار، متجاهلاً النص الإلهى القائل فى التوراة بشان هذا الإنسان:

(وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا) [١] وقوله أيضا فيها: (فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه) [٢]، هذا الذى يبلغ به الحد من التشبث أن يقع منه ما وقع من هذه التجاوزات لا يمكن بحال أن يكون هنالك بباله قط أدنى نزوع، بل مبالاة بالتفكير فى تبشير الأمم.

ومن ثم، فإذا كان مسيح الناصرة قد حصر رسالته فى شعب إسرائيل وحده، معتبراً كل من عداه من أمم وشعوب مجرد كلاب لا يجوز تبشيرها، أو الإحسان إليها، حتى قال فى موضع آخر من نفس الإنجيل: (لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير) [٣]، فلا وجه إذن للزعم بأن النص الذى نحن بصدده من الإصحاح الخامس والعشرين الآيات ٣١ - ٤٦ صحيح النسبة إلى مسيح الناصرة على النحو الذى هو عليه فى النسخة الحالية، حيث يشير إليه كديان (لجميع الشعوب) بينما هو لم يأت حسب إقراراته على نفسه إلا إلى شعب واحد بعينه فقط هو شعب (الخراف) أعنى إسرائيل، واعتبر سواهم من جنس الكلاب، متبنياً هؤلاء الخراف، ورافضاً من أسماهم الكلاب!!

ولا ندرى حكمته السامية فى تسمية من عدا الإسرائيليين بأنهم (كلاب):

فهل تراه يساير سفلة شعبه فى احتقارهم للشعوب الأخرى، إذ كانوا وثنيين وليسوا من الشعب المختار، فكانوا يسمونهم بهذا الاسم؟!

١- سفر التكوين: ص١ : ٢٦.
٢- ص١ : ٢٧.
٣- متى: ص٧ : ٦.

على أية حال، ومهما تكن مآخذ الكلاب، فهى خلق من خلق الله، ترعى الخراف التى جاء يرعاها، وتحرس الآدميين، وتطارد اللصوص، وقد تعقرهم أحياناً، فلذلك يكرهونها جداً، نعم، يكرهونها جداً لأن عندها ولاء لأصحابها، لا تمكر بهم، ولا تؤجر عليهم، ولا تفعل كما فعلت الخراف عندما رفعت راعيها على الصليب، بينما لاذ بالفرار أحبابه والمحاسيب!!

ومع ذلك، فمن يدرى! فلعله كان يرى بنور الله - كما يقول الرسول الكريم ﷺ - وبدا له من مكاشفة الغيب أن الضلالة بشأنه ستكون من هؤلاء الوثنيين لو بشرهم، فيؤلهونه، ويشركونه بالله تعالى، ويطمسون الحق الذى جاء به فأنزلهم منزلتهم بما استباحه من وصفهم بتلك الصفة. وعلى أية حال فبصائر الأنبياء تستضئ بوحى الله تعالى، فترى من الغيب ما لا يرى!!

فإذا وضعنا فى الاعتبار أن نسخة إنجيل متى الحالية، والتى جاء بها النص الذى نناقشه (ص ٢٥ : ٣١ - ٤٦) إنما هى الصورة اليونانية لإنجيل متى والتى ترجمت أصلاً عن النسخة التى كتبها متى بالعبرانية، ولكن على نحو (معدل) بما يوافق عقيدة بولس فى تأليه المسيح، وتبشير الأمم، حتى ثار النصارى المتهودون على هذه الترجمة اليونانية المعدّلة، ورموها بالتحريف والتزيد، ورموا بولس بأنه (مرتد)، أنكر ناموس موسى، وحرف إنجيل المسيح، فعندئذ قد نفهم سائر المواضع التى أضيفت فى هذا الإنجيل تشير إلى الأمم، والقول بتبشيرهم وكلها مما قام به أنصار بولس من بعد.

وإذن فالنص الذى نحن بصدده دخيل، أو على الأقل محرف عن أصله الأول.

وأنسب الأوقات لصورة هذا النص التى نراها فى النسخة الحالية هو القرن الرابع للميلاد حيث انتشرت العقيدة المسيحية بين الأمم بعد إعلان منشور ميلان سنة ٣١١٢ بالتسامح الدينى، ثم ما جاء بعده من القول باعتناق الامبراطور قسطنطين لهذه الديانة وما تلا ذلك من أمره بعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ للبت فى طبيعة المسيح وقد حرص فيه على تثبيت القول له الألوهية، حتى ينضم إلى هذه الديانة سائر شعوب الامبراطورية من الوثنيين لما يرون فيها من مشاكلة لعقائدهم، فيضمن بذلك الوحدة الدينية، التى تدعم الوحدة السياسية، ويتحقق بذلك الاستقرار للامبراطورية، كما

توهم ذلك الوثنى الداهية.

وبعد ذلك بحوالى نصف قرن، أو يزيد قليلاً، عقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ للقول بتأليه الروح المقدس، كما الهوا المسيح فى المجمع المذكور من قبل، وبعدها جاءت الصياغة النهائية للإنجيل على ما نراه فى الصورة الحالية.

وربما أكد ما نقول أننا نجد فى النص كما ذكرنا ستة عناصر، منها الثلاثة التى وردت فى حديث أبى هريرة وهى: المرض والجوع والعطش، بينما الثلاثة الأخرى المضافة فى الإنجيل هى: العرى والغربة والحبس.

فإذا تأملنا هذه الثلاثة الأخيرة التى أضافها الإنجيل رأيناها مجرد انعكاسات تاريخية للأحداث والاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون من خصومهم الذين كانوا يقاومون دعوتهم، ويطاردونهم، ويزجون بهم فى السجون.

وهذا كله كان قبل القرن الرابع الذى بلغت فيه المسيحية أمانها التام فى ظل قسطنطين وبنيه، وانتشرت بعد ذلك فى سائر الأمم فى الامبراطورية الرومانية وخارجها.

وهكذا نتبين من قوله: (ويجتمع أمامه جميع الشعوب)، ومن العناصر الثلاثة (العرى، والغربة، والحبس) أن الإنجيل فى النسخة الحالية قد دون على منهج بولس وعقيدته، وذلك فى القرن الرابع بعد تمام القول بتأليه المسيح والروح القدس!

ولكننا مع ذلك نقول: إن هذا النص قد جاء أيضاً عند معلمهم العظيم المسمى أوريجانوس Origen المتوفى سنة ٢٥٤ وإذا به يختلف اختلافاً شديداً عن صورته الحالية فى إنجيل متى الذى تفرد به من سائر الأناجيل، فقد ذكر ذلك المعلم هذا النص هكذا: **(وقال يسوع: فمن حيث المرض كانوا بحق مرضى. ومن حيث الجوع كانوا بحق جوعى، ومن حيث العطش كانوا بحق عطاشى)** [1].

فأين هذه الصياغة بهذا النسق الحرفى فى النص الحالى عند متى، أو غير متى؟!

١- Gospel Parallels. P. 162, Footnotes.

ومع ذلك فهذه العناصر الثلاثة فى هذا النص الفريد على ما نقله أوريجانوس هى عين العناصر التى جاءت فى حديث أبى هريرة، وبنفس الترتيب، فهل جاء ذلك عفواً؟!

علينا أن نبدأ أولاً بالتعرف على صورة النص فى زمن أوريجانوس:

فلا يخلو أن يكون النص أمام أوريجانوس:

بالصورة التى ذكرها، أو بصورته كما نراها فى النسخة الحالية أو قريباً من قالبها.

فإن كان بالصورة التى ذكرها فأين النسخة التى نقل منها، ولماذا اختلف عنها فى النسخة الحالية؟

وان كان بالصورة الحالية أو قريباً منها: فمن أين جاء بالنص على الصورة التى ذكرها؟

إن هذا يستلزم:

إما أنه قد نقل عن نسخة من نسخ الإنجيل، فيلزم أن نعرفها، ونعرف أسبابه فى الثقة بها، فنقل عنها.

أو أنه نقل عن مصدر غير إنجيلي جاء به أصل النص الإنجيلى، فيجب السؤال عن ذلك المصدر والعلة فى النقل عنه، ونسبة ذلك إلى الإنجيل، أو المسيح.

وينحل الإشكال بالتسليم بما قررناه فى هذا السياق من أن صورة النص الحالية غير أصيلة فى نسخ القرون الأولى، وأنها كما ذكرنا قد جاءت وفق الصياغة التى انتهى إليها الإنجيل فى القرن الرابع. يؤكد ذلك أنهم يقرون باختلاف النص فى نسخ الإنجيل الواحد فى القرون الثلاثة الأولى: وقد استشهدوا على ذلك بأن كلا من أوريجانوس Origen الذى نحن بصدده، والمتوفى سنة ٢٥٤، وترتوليان Tertullian المتوفى سنة ٢٢٠ قد شهدا كلاهما بأن النص (الإنجيلى) كان يتغير بتعدد النسخ، واختلاف الترجمات فى عصرهما، أى فى القرن الثالث وما قبله [1].

---

١ - Fausset,s; Bible Dic Art. N.T ., P. 507.

كما أقروا أيضاً بأن الآباء فى القرون الأولى قد أكثروا من النقل مما يسمونه الآن بالأسفار المنحولة أو الأبوكريفية Apocryphal للإنجيل، بنفس الثقة التى نقلوا بها من الأسفار المعتمدة حالياً، وذلك على اعتبار أن كل تلك الأسفار كانت جميعاً فى نظرهم صحيحة أصيلة، إذ لم تكن تلك الأسفار التى يسمونها الآن منحولة Apocryphal قد اكتسبت بعد فى زمنهم تلك الصفة. وقد استدلوا على ذلك بما جاء عند كل من (يوستينوس الشهيد Justin Martyr) المتوفى حوالى سنة ١٦٥ وطاطيان Tatian تلميذه المتوفى بسنة ١٧٥، حيث دون يوستينوس أن (ذكريات الرسل Memoirs Of the Apostles) التى تسمى (الأناجيل) كانت تتلى فى الطقوس المسيحية)، ومع ذلك فقد تبينوا من الشواهد والاقتباسات التى ذكرها أن فيها مواضع متعددة لا توجد فى الأناجيل الحالية، أو لا تتوافق مع مضامينها. وإنما تحتوى أصولاً نجدها فى الأسفار الأبوكريفية. كما تبينوا أيضاً أن هذه المضامين قد أفاد منها طاطيان فى تنسيقه للأناجيل فى كتاب واحد هو الذى عرف فيما بعد باسم (الرباعى Diatessaron) الذى وفق فيه روايات الأناجيل الأربعة فى رواية واحدة [1].

ونفس الذى فعلوه فى النقل من الأسفار المنحولة فى المسيحية فعلوه أيضاً فى النقل من الأسفار المنحولة من قبل فى اليهودية فاقتبسوا منها على الثقة بصحتها وأصالتها دون ما علم بانتحالها.

والحاصل إذن أن القرون الثلاثة الأولى للمسيحية لم تشهد استقراراً على صيغة واحدة لإنجيل واحد، ومن ثمة ينتج أن الاستقرار على صيغة نهائية لكل إنجيل من الأربعة المعتمدة كان بعد تلك الثلاثة القرون الأولى، فهل تجاوزنا إذ قلنا كان ذلك فى القرن الرابع؟ وهل يمكنهم أن يناظروا بين نسخة من نسخ الإنجيل الحالية ونظيرة لها مما قبل القرن الرابع - إن وجدت - دون أن يقعوا على عين ما نقرره الآن؟

ويترتب على ذلك إذن أن أوريجانوس عندما اقتبس ذلك النص كانت أمامه نسخة لإنجيل متى تختلف عن التى بين أيدينا، تتضمن النص على ذلك النحو المغاير لصورته فى النسخة الحالية.

١- The New Bible Dic. Art, Canon Of the N.T., P 195.

لكن، هل يمكننا أن نتعرف على تلك النسخة من إنجيل متى التى عرفها أوريجانوس، واقتبس هذا النص منها؟

لعل أول ما يتبادر إلى الخاطر فى هذه الحالة الظن بأن يكون أوريجانوس قد أخذ ذلك عن النسخة العبرانية لإنجيل متى، ومن ثم فقد يكون ذلك أيضاً هو نفس مصدر أبى هريرة - أو وسيطه - فى الحديث المذكور، خاصة ونحن نعلم من جيروم فى كتابه عن مشاهير الرجال أن أوريجانوس كان كثير الاستعمال (لإنجيل العبرانيين) الذى يعنى به النسخة العبرانية لإنجيل متى.

على أننا نرد على ذلك بأن علماءهم المختصين بالتنظير بين النصوص الإنجيلية لم يدعوا قط وجود النص الذى أورده أوريجانوس فى أى من الأناجيل غير المعتمدة التى تعرفوا عليها، أو فى اقتباسات القدماء من تلك الأناجيل ومنها الأصل العبرانى لإنجيل متى.

كذلك فان جيروم Jerome المعتبر عندهم أعظم مترجمى الأسفار المقدسة التوراتية والإنجيلية، فى العصور المتقدمة، ومن أفاضل مفسريهم فى تلك العصور، نراه يعطى اهتماماً خاصاً لإنجيل متى فيقوم بتفسيره، ويراعى فى ذلك التفسير أن يناظر بين كل نص فى ذلك الإنجيل بصورته الحالية وأصله أو نظيره فى النسخة العبرانية التى يقرر أنها أصل ذلك الإنجيل، ويصرح أكثر من مرة فى ذلك التفسير بأنه قد قام بترجمة النسخة العبرانية إلى اليونانية واللاتينية.

وفى ذلك التنظير الذى عمد إليه جيروم بين إنجيل متى فى النسخة الحالية، أو بمعنى أدق، اصل النسخة الحالية، وبين النسخة العبرانية لذلك الإنجيل، وكذلك تصريحه أكثر من مرة بترجمة تلك النسخة العبرانية إلى اليونانية واللاتينية، ما يدل على المغايرة الواضحة بين الأصل العبرانى والنسخة الحالية.

ومع ذلك، فلم يأت قط من النسخة العبرانية بنص مناظر لهذا النص الذى تناقشه فى النسخة الحالية من إنجيل متى، أو بخبر عن شبيه به، أو أصل له.

وكذلك صمت آباء القرون الأولى فى اقتباساتهم من شتى الأناجيل المعتمدة وغير

المعتمدة عن اقتباس نص شبيه بمضمون النص الذى نحن بصدده ينسبونه إلى إنجيل متى العبرانى، أو أى إنجيل آخر، خلاف النسخة الحالية!!

فلماذا صمت هؤلاء الآباء، وانقطعوا كلهم أجمعون، عن اقتباس هذا النص الذى جاء به أوريجانوس منسوباً إلى إنجيل متى، فلم ينقلوه عن أصل متى العبرانى، ولم يلمحوا إليه بما يفيد علمهم به، وعلمهم بكونه منه؟

والقضية إذن واضحة:

فإما أن النسخة العبرانية لإنجيل متى قد اشتملت على النص، أو خلت منه:

فإن كانت قد اشتملت عليه لزم أن يكون على إحدى حالتين:

فإما أن يكون بصورة النسخة الحالية.

أو أن يكون بصورة النص الوارد عند أوريجانوس.

فإن كانت النسخة العبرانية قد اشتملت النص بصورة النسخة الحالية، قامت هنالك مسألة: هى:

من أين إذن اقتبس أوريجانوس النص الذى جاء عنده؟

وإن كانت قد اشتملت النص بصورته عند أوريجانوس، فلماذا صمت جيروم ولم يشر بشئ قط إلى ذلك، وخالف بذلك منهجه فى التنظير والتوثيق لنصوص ذلك الإنجيل؟

ومع ذلك، فلا سبيل لهم إلى الخروج من هذه المعضلة بالطعن فى نقل أوريجانوس. لأنهم وان اختلفوا حول آرائه، لكنهم مجمعون على ولائه للعقيدة، وأمانته على نصوص الكتب المقدسة، ويعتمدون نسخته التى وضعها للكتاب المقدس.

المخرج إذن: أن تكون نسخة إنجيل متى العبرانى قد خلت تماماً من هذا النص، أو أى أصل له.

وهنا تبلغ المعضلة ذروتها القصوى!!

وهنا أيضاً قد يحسن أن نلتفت إلى أبى هريرة:

لقد سبق لنا أن عرضنا لحديث عن السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ رواه كل من البخارى ومسلم فى صحيحيهما بشأن ورقة بن نوفل والإنجيل، وتعرفنا من ذلك على ترجمة عربية للأنجيل قبل البعثة المحمدية، سواء كان ورقة هو نفسه القائم بتلك الترجمة، أو مجرد ناقل عنها، ناسخ لها. كما قررنا أيضاً فى نفس السياق أن ذلك الإنجيل الذى توافقه إشارات الحديث المذكور، والاتجاه النصرانى لورقة، إنما هو إنجيل متى فى أصله العبرانى كما عرفه النصارى المتهودون الذين يسمون أحياناً النصارى العبرانيين، أو الناصريين، أو الأبيونيين، أو من وافق تلك الجماعات فى عقائدها واتجاهاتها.

من ثمة فقد يخطر لنا خاطر: ألا يمكن أن تكون تلك النسخة العبرانية لإنجيل متى قد وصلت فى صورتها العربية، إلى أبى هريرة أو وسيطه، أو حتى فى صورتها العبرانية أصلاً إلى ذلك الوسيط المفترض للصحابى المذكور، وكان بها النص الذى نحن بصدده، فمن ثمة جاء حديث أبى هريرة على النحو الذى جاء به، أو قريباً منه؟

على أن ذلك فى نظرنا أمر متعذر يرقى إلى درجة الامتناع، وذلك لأسباب نذكر منها:

أولاً: لا نعلم أن أحداً من مسلمى نصارى العرب، أو من مسلمى العرب عامة، قد أشار قط إلى إنجيل متى هذا سواء فى صورته العبرانية الأصلية، أو فى منقول عنها، كما لا نعلم أن أحداً منهم قد علم شيئاً بشأن ذلك الإنجيل، إلا ما استنبطناه نحن من حديث السيدة عائشة بشأن ورقة بن نوفل وعلاقته بالإنجيل.

ثانياً: أن نصارى العرب، وغير العرب، إلى اليوم، لم يتمكنوا قط من وضع يدهم على دليل واحد، أو قرينة واحدة، لإثبات وجود تلك النسخة العبرانية لإنجيل متى، أو نسخة عربية لها، أو نص واحد منها، عند العرب سواء قبل البعثة، أو بعدها، رغم حرصهم الشديد، بل المستميت، لإثبات ذلك لدعم دعواهم ضد محمد ﷺ فيما يزعمونه من استمداده من أناجيلهم، رغم علمهم بأنهم كاذبون فيما يزعمون. ولا تعلق

لهم فى ذلك إلا بحديث السيدة عائشة الذى أومأنا إليه. ولو أنهم وجدوا شيئاً من ذلك لتناقلوه حتى اليوم باهتمام شديد حريصين عليه حرصهم على دينهم وحياتهم، خاصة وهو يمثل آنئذ سلاحاً فى أيديهم يشهرونه ضد الإسلام والمسلمين عندما يحبون، وما أكثر ما يحبون!!

ثالثاً: نعلم نحن وغيرنا من دراسة حياة أبى هريرة ومروياته ومصادره وعلاقاته أن اتجاه اهتماماته كان إلى المصادر التوراتية واليهودية بصفة عامة، وقد صرح هو نفسه بذلك أكثر من مرة، وسمى بعض وسطائه إلى تلك المصادر من أمثال عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، الذى تعلق به، وتلقى عنه، والح عليه، كما ألح على صاحبه بن سلام، فى مكاشفته بالتوراة وكتب اليهود وعدم كتمانها دونه. وفى نفس الوقت لم يشر قط، ولا أشار غيره بشأنه قط، إلى أدنى اهتمام له بكتب النصارى، أو عقائدهم، أو صحبته لأحد منهم يعلم دينهم، أو عن مسألة له بشأنهم.

رابعاً: ان وسطاء أبى هريرة من اليهود الذين أسلموا قد انتقلوا من اليهودية إلى الإسلام مباشرة دون مرور بالنصرانية كنحلة أو اعتقاد، ولم يتلبث أحد منهم للعلم بها، أو الاطلاع على كتبها ومصادرها. وهم من ثمة كانوا على سنة قومهم من اليهود فى عدم الاعتبار للنصرانية أو الإنجيل، أو سائر كتبها ومصادرها، فلما أسلموا أخذوا موقفهم بشأنها على ما جاء فى خبر القرآن، ووفق عقيدته، وليس على ما جاء فى أصولها أو مصادرها المدعاة عند أصحابها. ومن ثمة فاحتمال تأثرهم بكتبها، أو نقلهم عنها احتمال واهن تماماً، إن لم نقل إنه ساقط كل السقوط.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق أن ذكرناه من عدم اقتباس آباء الكنيسة ومعلميها فى القرون الثلاثة الأولى للنص الوارد عند أوريجانوس، والموافق فى عناصره، تسمية، وعدداً، وترتيباً، لما جاء فى حديث أبى هريرة.

وكذلك ما قررناه بشأن معلمهم جيروم من كونه لم يشر إلى ذلك النص قط بنقل أو خبر رغم حرصه على المناظرة بين النصوص فى النسخة العبرانية لإنجيل متى والنسخة اليونانية التى كان يقوم بتفسيرها.

إذا اعتبرنا كل ذلك، خرجنا عندئذ بنتيجة واضحة: هى: امتناع نقل أبى هريرة، أو وسيطه، لذلك النص، أو أصله، من إنجيل متى العبرانى كما امتنع ذلك من قبل بشأن أوريجانوس على ما قررناه فى هذا السياق.

وهنا أيضاً: تبلغ المعضلة ذروتها القصوى!!

وهنا يبرز لنا سؤال المصير: لقد ذكرنا من قبل أن اتجاه أبى هريرة كان إلى المصادر التوراتية واليهودية، فهلا يفيدنا هذا شيئاً بشأن أوريجانوس فى مصدر النص الإنجيلى الذى جاء عنده، كما رأينا من قبل فى النص الذى نقله كل من بولس وأبى هريرة من سفر إيليا المتحول؟

لنجيب على ذلك تقوم لنا دعويان:

الأولى: اقتراح إضافة النص الإنجيلى الذى نقله أوريجانوس إلى إحدى نسخ إنجيل متى فى ترجمتها اليونانية المعدلة.

الثانية: اقتراح المصدر اليهودى لهذا النص المضاف إلى الأصل اليونانى المعدل للإنجيل المذكور.

الدعوى الأولى

بيان إضافة النص إلى الانجيل

نستدل على إضافة النص الوارد عند أوريجانوس إلى إنجيل متى، وعدم أصالته فيه، بحقائق واقعة لا يقدرون على دفعها لأنها من إقراراهم وشهادتهم على أنفسهم، من ذلك مثلاً:

١ - شهادة كل من أوريجانوس وترتوليان بأن (النص كان يتغير بتعدد النسخ، واختلاف الترجمات) [1] حتى وقت وفاتهما فى القرن الثالث.

وهذه الشهادة تستلزم أن نتساءل: ما مدى ذلك التغيير والاختلاف المشار إليه: هل هو من جهة المنهج فى الترجمة بالنص أو بالمعنى، أم من جهة الإضافات

---

١ - Fausset's: Bible Dic. Art. N.T.P. 507.

والاختصارات، أم من جهة مصادر تلك الإضافات والتوسيعات، أم من جهة مبررات الحذف والاختصار، أو الإبدال والتعديل!

وهذه الشهادة إذن تحمل مغزى خطيراً بشأن الأصول الأنجيلية، وتنزع الثقة بسلامة النص الإنجيلى وتواتره، وتؤكد احتمالات إضافة النص المذكور إلى أصل الإنجيل، وارتداده أصلاً إلى مصدر غير إنجيلى.

٢ - شهادة أوريجانوس التى أقر فيها بما أسماه (الكذب المادى) الذى اقترفه كتبة الإنجيل، فنسبوا أقوال المسيح ووصاياه إلى مناسبات غير مناسباتها الحقيقية، وإلى مواطن تختلف عن مواطنها الأصلية، مضيفين إلى ذلك بعض الإضافات أو التعديلات فى الصيغة والمعنى على ما بدا لهم نافعاً لنقل تعاليم عقيدتهم، يقول أوريجانوس:

(.. لا يجب إدانة بعض الإنجيليين حتى ولو عدلوا بعض الأشياء، إذ كانوا يتكلمون عن شئ حصل فى مكان ما وكأنه حصل فى مكان آخر، أو عن أمر حدث فى زمن ما كما لو أنه حدث فى وقت آخر، أو يدخلون بعض التغييرات فى الكلمات التى نطق بها (المسيح) فعلاً. كان قصدهم قول الحقيقة بوجهيها: المادى والروحى. وفى حال استحالة ذلك كانوا يفضلون قول الوجه الروحى. والحق يقال إن الحقيقة الروحية كانت تنقل أحياناً بما يسمى (الكذب المادى) [١].

وهذه الشهادة من أوريجانوس بالغة الخطر لأنها تثبت على الأقل عدة أمور:

١ - الإقرار باختلاف مناسبات أقوال المسيح فى الأناجيل عن مناسباتها الحقيقية.

٢ - الإقرار باختلاف مواطن إلقائه لتلك التعاليم فى الأناجيل عن مواطنها الأصلية.

٣ - الإقرار بإدخال (بعض التغييرات فى الكلمات التى نطق بها المسيح فعلاً).

٤ - الإقرار بما أسماه إيثار الجانب الروحى على الجانب المادى، ويعنى بذلك أنهم

١- ف. كيريتش: المسيح فى الأناجيل / تعريب ميشال نجم. ص٤٧.

لم يكونوا حريصين على التزام القالب النصى للتعليم الأصلى إذا بدا لهم أنه يقصر عن تحقيق التأثير القوى الذى يتطلعون غليه، ومن ثمة كانوا يستبيحون لأنفسهم أن يغيروا فى الأصل، أو يضيفوا إليه، ما يحقق تلك الغاية.

وهذا الذى أقر به أوريجانوس سبق لنا أن عرضنا له فى كتابنا عن (عقائد النصارى الموحدين) وأتينا بأربعة نصوص قديمة من إنجيل متى تختلف تماماً عن صورتها ومواضعها، ومناسباتها وأماكنها، وأسلوبها ومضامينها، فى النسخة الحالية بما يؤكد أن ذلك الإنجيل كتب مرات عديدة، وطرأت عليه تغييرات وتعديلات حسب تطورات تاريخية وعقائدية معينة.

ولعل أنسب تلك النصوص الأربعة إلى النص الذى نعالجه الآن من حيث كونه موسعاً ومضافاً إليه فى النسخة الحالية هو النص الذى جاء فى الموعظة على الجبل من الإصحاح السادس من إنجيل متى (الآيات ٢٦ - ٣٣) حيث بينا هنالك ما فى النسخة الحالية من إضافة عنصر (اللباس) الذى لم يكن له ذكر قط فى النص القديم من الإنجيل، والحيز الذى شغله هذا العنصر المضاف بما يوازى حجم النص القديم، وما انطوى عليه من صور ومؤثرات وجدانية لم تكن بالنص القديم [1].

وإذن فشهادة أوريجانوس هذه تؤكد الإضافة إلى الإنجيل. والتغيير فى الكلمات الأصلية للمسيح، والتوسع فى الأصل حسب الاقتضاء.

وعليه، فاقتراحنا بأن أصل النص الحالى مضاف إلى الإنجيل لا يقوم على تعسف أو افتراء، بل ينبنى على أسس قوية من إقرار معلميهم وآباء كنيستهم وقادة دينهم.

٣ - يقر علماء المسيحية الباحثون فى الأصول الإنجيلية بأن كتبة أسفار ورسائل العهد الجديد كانوا كثيراً ما ينقلون، أو يقرنون النص بالتفسير، دون أن يذكروا ذلك، أو يشيروا إلى مصادرهم، ومن ثمة نقلوا عن كثير من الأسفار الأبوكريفية فى اليهودية والمسيحية دون إشارة إلى تلك الأسفار، أو تعيينها، ونقلوا أيضاً من كتابات الوثنيين [2].

---

١ - حسنى الأطير: عقائد النصارى الموحدين ص١٧٠ - ١٧٢، دار الأنصار.

٢ - The New Bible Dic Canon Of the N.T ., P. 195.

والمجال لا يتسع هنا للتفصيل، ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة:

فهذا بولس مؤسس المسيحية الحالية، ومعلمهم الأعظم بعد المسيح بغير منازع، وله الاعتبار المقدم على كتبة الأناجيل، ورسائله اسبق من تدوين الأناجيل الأربعة المعتمدة، وتؤخذ كلماته عندهم كوحى مقدس، نراه، يقتبس وينقل من كتب منحولة، أو مدونات وثنية، دون أن يشير إلى ذلك:

فيقول فى رسالة كورنثوس الأولى: (إن كان الأموات لا يقومون: فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت) [1] وبعض الترجمات الإنجليزية تسبق النص بهذه العبارة: (أنتم تقولون: إن كان...).

ولا يتضح من السياق ما يدل على كونه ينقل أو يقتبس من غيره. ومع ذلك فهذا النص منقول بحرفه من الشاعر الاغريقى (ميناندر Menander المتوفى ٢٨٩ ق.م فى مسرحيته) This وهو كما نعلم جميعاً شاعر وثنى عريق فى الوثنية!!

كذلك ينقل بولس من مصدر آخر هذا النص فى رسالة أفسس:

(لذلك يقول: استيقظ أيها النائم، وقم من الأموات، فيضئ لك المسيح) [2]. ومع ذلك فهذا النص منقول من سفر يهودى منحول هو سفر إرمياء غير القانونى، وهو بهذا مستوجب للمساءلة:

ذلك أنه ينقل من سفر منحول يحتمل الكذب والتزوير.

وأنه يضيف عبارة (فيضئ لك المسيح) وهى ليست فى الأصل، عامداً بذلك إلى الإيهام بأن جملة النص من الوحى المسيحى.

ونتساءل: إذا كان هذا هو منهج معلمهم الأعظم، وأستاذ كتبة الأناجيل، مرقس، ولوقا، ويوحنا، فهل هناك عجب أن يكون لمنهجه انعكاسه وأثره على نسخة متى اليونانية المعدّلة التى قام بها أنصاره وتابعوه من بعد؟!

ومثل ذلك يقال أيضاً بشأن كاتب رسالة (يهوذا)، هذا الذى يزعمون أنه تلميذ

١- ص١٥ : ٣٢.

٢- ص٥ : ١٤.

المسيح من الرسل الاثنى عشر المقربين، وأنه أخ ليعقوب James الأخ غير الشقيق للمسيح من يوسف النجار زوج مريم، أى كلاهما - يعقوب ويهوذا - أخوان للمسيح غير شقيقين، أو على الأقل من أقربائه.

فرسالة يهوذا بإقرارهم قد اقتبست كثيراً من مصادر أبوكريفية، وما جاء فيها بشأن العقاب الأخروى بالتحديد هو على قولهم من التقاليد اليهودية، ومثل ذلك أيضاً قالوه عن رسالة يعقوب المذكور.

وقد أقروا - ولا سبيل أمامهم غير الإقرار - بأن الآيتين: (١٤، ١٥)، من رسالة يهوذا منقولتان بنصهما حرفياً من سفر أخنوخ الأول، دون أن يذكر الكاتب - المفترض أنه يهوذا تلميذ المسيح - أنه ينقل أو يقتبس من سفر معتمد أو غير معتمد، يهودى، أو مسيحى، أو وثنى. وها هو النص:

(وتنبأ على هؤلاء أيضاً أخنوخ السابع من آدم قائلاً: هوذا قد جاء الرب فى ربوات قديسيه. ليصنع دينونة على الجميع، ويعاقب جميع فجارهم على جميع أعمال فجورهم التى فجروا بها، وعلى جميع الكلمات الصعبة التى تكلم بها عليه خطاة فجار).

فهذا هو تلميذ المسيح، ورفيق (متى) العشار المنسوب إليه الإنجيل الذى نناقش النص الذى جاء فيه، ينقل ويقتبس دون ذكر مصادره، ويرسل القول إرسالاً كأنه لفظه ومعناه، أو كأنه وحى مسيحى تلقاه ووعاه، من سيده ومولاه، صاحب سره ونجواه، مسيح الناصرة، رسول دينه ورفيق صباه!!

وإذا كان ذلك فيما رأيناه من نقل من مصادر وثنية أو يهودية يقوم بها بولس ويهوذا ويعقوب وغيرهم من مؤسسى المسيحية الأولين، وهم بمثابة رفقاء ومعلمى كتبة الأناجيل الأربعة المعتمدة: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، فأى عجب إذن إذا رأينا كتبة هذه الأناجيل من بعد كتبتها الأول يعمدون إلى انتهاج المنهج الذى مهده هؤلاء السابقون الذين ذكرنا أمثلة من نقلهم وانتحالهم أقوال غيرهم؟!

لا وجه إذن لإنكار ذلك، أو استبعاده:

فالإصحاح الأخير من إنجيل مرقس مثلاً قد أضيف سائر ما جاء فيه بعد الآيات الثمان الأول، ولم يهتدوا إلى من أضافها، ولا وجدوا سبيلاً إلى تسليمها، حتى لقد استباح كثيرون منهم فى نشر الإنجيل المذكور أن يضعوا مجرد تلخيص لهذا النص المضاف وتعددت التلخيصات، وذلك بدلاً من ذكره وتحقيقه، لعلمهم بأنه دخيل مدسوس.

ومثله يقال أيضاً فى الإصحاح الأخير من إنجيل يوحنا فقد أقروا أيضاً بإضافته بعد الخاتمة التى تضمنها الإصحاح قبل الأخير منه.

بل إن قصة المرأة الزانية التى وردت فى إنجيل يوحنا فى الإصحاح الثامن منه لا يدرون حتى الآن من أين جاءت، وكيف أضيفت، ولا موضعها المحدد الذى تختص به لو كانت أصلاً فى نص الإنجيل. وإنهم ليقرون أن بعض أصولهم الموثقة لا تتضمنها إطلاقاً. بينما تضعها مصادر أخرى فى إنجيل لوقا كتكملة للإصحاح الحادى والعشرين الذى ينتهى بالآية الثامنة والثلاثين منه. بينما آخرون يضعونها فى يوحنا المذكور بعد الآية السادسة والثلاثين من الإصحاح السابع الذى جملته اثنتان وخمسون آية. أو كتكملة لنفس الإصحاح بعد آيته الأخيرة. بينما آخرون وضعوها فى الإصحاح الحادى والعشرين من يوحنا بعد الآية الرابعة والعشرين منه، وقبل الآية الخامسة والعشرين التى يختتم بها هذا الإنجيل.

ترى لو كانت أصول الأناجيل ظلت صحيحة لم تتسرب إليها الأيدى بالعبث، فتارة تضيف، وتارة تحذف، وأخرى تغير فتصحح أو تحرف، أكان يقع مثل هذا الذى ذكرنا جانباً منه؟!

لكن ذلك كله دال دلالة أكيدة على أن الإضافة إلى الأناجيل كانت أمراً واقعاً فى القرون الأولى، بما يستوجب كتابتها أكثر من مرة، ومن ثمة جاءت إضافة النص الذى جاء عند أوريجانوس كأصل للنص الوارد فى الآيات ٣١ - ٤٦ من الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى الذى نعالجه فى هذا البحث.

وإذن فدعوانا بإضافة هذا النص إلى الإنجيل أمر ينبغى التسليم به.

لكن.. يبقى أن نعرف: متى، وكيف، أضيف هذا النص إلى إنجيل (متى) (ص٢٥: ٣١ - ٤٦)؟

نحن لا ندرى بالتحديد الوقت الذى أضيف فيه هذا النص إلى إنجيل (متى) على النحو الذى ذكره أوريجانوس. ولكننا نعلم أن ترتوليان Tertullian المتوفى ما بين سنة ٢٢٠ أو ٢٣٠ كان على علم به، وكذلك معاصره اكليمندس Clement الاسكندرى المتوفى سنة ٢١٥، فعند اكليمندس وردت فى موضعين من كتابه Miscellanies هذه العبارة على لسان المسيح، (إذا عدت أخاك، رأيت إلهك)

(For he said: you have seen your brsther, you have seen your God)

ونفس هذه العبارة أوردها ترتوليان هكذا: (إذا عدت أخاك رأيت ربك) فى كتابه On Prayer، باختلاف طفيف هو قوله: Your Lord بدلاً من Your God [1].

وأقل ما يستفاد من ذلك إذن أن النص الذى ذكره أوريجانوس والعبارة التى أوردها كل من اكليمندس وترتوليان - وهى جزء من تكملته.. كان معروفاً خلال النصف الأخير من القرن الثانى الذى عاش فيه هؤلاء الثلاثة جانباً من حياتهم.

ولذلك نستطيع الادعاء بأن النص المضاف لم يتأخر عن القرن الثانى، ولكننا لا نملك دليلاً للقطع بأنه كان فى القرن الأول.

على أن بعض الباحثين يرون أن بمكنتهم الادعاء بأن ترجمات إنجيل متى إلى اليونانية كانت قد توقفت بنهاية القرن الأول، أو فى بدايات القرن الثانى، وذلك على أساس ما جاء فى عبارة (بابياس Papias) حيث قال: (وقد كتب (متى) الأقوال Logia بالعبرانية، ثم ترجمها كل واحد إلى اليونانية حسب استطاعته).

فقد بنوا على ذلك أن بابياس المتوفى حوالى سنة ١٣٥، أو ١٥٥، استخدم صيغة الماضى ولم يشر إلى استمرار الترجمة وقت تدوينه تلك الأخبار [2].

واستخلصوا من ذلك نتيجتين:

١- Gospel Porallels, P. 162, Footnotes.

٢- Fausset,s: Bible Dic Art. Matthew, Gospel of, P. 458.

الأولى: وقف ترجمات إنجيل متى إلى اليونانية فى نهاية القرن الأول، أو بدايات الثانى.

الثانية: أن وقف تلك الترجمات يعنى أن تكون قد ظهرت هنالك ترجمة يونانية معتمدة امتنع معها السماح بأية ترجمات أخرى.

ونحن ندفع هذه الدعوى.

فأسقف هيرابوليس لم يشر قط إلى أن الترجمات اليونانية لإنجيل متى العبرانى حدث لها (وقف) أو (إيقاف) لأى سبب من الأسباب، وكل ما هنالك أنه يتكلم عن مرحلة من مراحل إظهار نص يونانى للإنجيل العبرانى سبق مرحلة تدوينه لكتابه.

كذلك فإنه لم يشر قط، سواء فى هذا الموضع، أو فى أى موضع آخر من أقواله التى عرفها الباحثون، إلى ظهور ترجمة يونانية معتمدة لإنجيل متى فى زمنه أو قبل زمنه، بل لم يعين أيضاً إحدى تلك الترجمات اليونانية، ولا وثق نصاً من نصوصها.

يضاف إلى ذلك أننا لو أخذنا بهذه الدعوى لاقتضى ذلك إسقاط شهادة كل من ترتوليان وأوريجانوس بأن النص الإنجيلى (كان يتنوع، ويتباين حسب اختلاف النسخ والترجمات إلى وقتهما) [1]، وهذا يعنى إسقاط حقائق تاريخية موثقة بشهادة أعظم معلمى الكنيسة للأخذ بأوهام جاهلة لبعض المغرضين الذين يحسبون أنهم بحصر ترجمات متى فى حدود القرن الأول، أو بداية الثانى يستطيعون أن يصنعوا ما يرقعون به خرقاً لا يُرقع!!

فشهادة باباياس تؤكد تعدد واختلاف الترجمات اليونانية لإنجيل متى العبرانى حتى زمنه، وكانت وفاته حوالى منتصف القرن الثانى.

وشهادة ترتوليان وأوريجانوس تؤكد استمرار التعدد والاختلاف فى الترجمات لنفس الإنجيل إلى زمنهما، وكانت وفاة أوريجانوس بعد منتصف القرن الثالث.

والمحصلة النهائية إذن استمرار تعدد واختلاف الترجمات اليونانية لإنجيل متى

١- Ibid, P. 507.

العبرانى حتى منتصف القرن الثالث.

وبذلك تنتفى تماماً حتمية أن يكون النص الذى ندرسه قد أضيف فى القرن الأول بالضرورة، وإن كان الأرجح فى نظرنا أنه من نتاج القرن الثانى، لأنه كان الأنسب لذلك بكثرة التأليف للأناجيل والرسائل وكتب الأعمال، وانتشار الأسفار الأبوكريفية من يهودية ومسيحية، والأسفار الرؤيوية، وغيرها، مما يتيح مادة وافرة يفيد منها كاتب الإنجيل من بعد أصله الأول فى الترجمات اليونانية.

وقد ذكر علماؤهم أن الدس والتحريف، وتغيير النصوص فى إنجيل متى هذا وغيره، بلغت درجة من السوء يتعذر معها تمييز الأصل من الدخيل، واقروا بأن الشواهد الإنجيلية التى جاءت عند يوستينوس الشهيد المتوفى حوالى سنة ١٦٥، ومن قبله عند الآباء الرسوليين، تظهر أن تدوين الإنجيل لم يحل دون تسلل التقاليد الشفاهية إلى ذاكرتهم عند روايته، بل إن ذلك قد حدث أيضاً فى عملية النسخ ذاتها لتلك النصوص. ففى التنسيقات، أو التوليفات Harmonies التى كانوا يضعونها لتوحيد الأناجيل الأربعة فى نسق أدبى واحد، أو ما يسمى الرباعى Diatessaron، كان يحدث أن يسقط نص من رواية إنجيل معين، ويضاف هذا النص ذاته فى رواية إنجيل آخر. (ومن هؤلاء أمونيوس Ammonius فى القرن الثالث الذى وضع أحد هذه التنسيقات، وانعكست عنده هذه الظاهرة).

كذلك أدرجت الحواشى والتعليقات الهامشية فى صلب النص.

وكان الاختلاف يزداد ويتعاظم كلما بعد المكان، أو الإقليم.

وكل ذلك أدى إلى ظهور نسخ مختلفة، فى أماكن مختلفة.

ويذكر أوريجانوس أن (الأخطاء التى كانت تنشأ من غفلة بعض النساخ، وتصحيحاتها من آخرين، قد أدرجت جميعا فى صلب بعض النصوص، وفى بعضها كانت تؤخذ حسب الاجتهاد) [1].

---

١ - Fausset,s: Bible Dic Art. The N.T ., P. 507.

واضح إذن ما آلت إليه الترجمة اليونانية لإنجيل متى إلى زمن أوريجانوس أو إلى منتصف القرن الثالث الذى توفى بعده بقليل.

وواضح من شهادته أنه رأى أكثر من نسخة، وأكثر من ترجمة، لهذا الإنجيل، وأدرك ما بينها من تغير واختلاف.

فإذا أضفنا إلى ذلك شهادته أيضاً التى ذكرناها من قبل عما أسماه (الكذب المادى) الذى ارتكبه كتبة الإنجيل، واستباحوا به لأنفسهم أن يضعوا على لسان المسيح ما لم يقل، مما يظنونه نافعاً فى التعليم، أو يغيروا من كلماته حسب ما يتراءى لهم محققاً للغاية، أدركنا عندئذ مدى ما خضع له النص الإنجيلى من تعديلات وإضافات، وما كان بين نسخ الإنجيل الواحد من تغييرات واختلافات.

كانت هنالك إذن أمام أوريجانوس - فى القرن الثالث - ترجمات يونانية متعددة، مختلفة، ومتباينة، لإنجيل متى.

وكانت أمامه أيضاً من هذه الترجمات نسخة، أو عدة نسخ، أضيف فيها هذا النص الذى ندرسه، نقله بعضها من بعض، أو اشتركوا فى نقله من مصدر واحد.

ولا نحسبهم يمتلكون ما يدفعون به هذا الاحتمال، إلا أن يأتوا بنسخ القرون الأولى تشفع لهم، وذلك عين المحال!!

وإذن: فاحتمال الإضافة قائم حتى يظهر دليل يدفعه، ولن يكون ذلك الدليل!!

ونحن نرى أن النص فى صورته عند أوريجانوس أشبه بالأصل المنقول عنه، ثم طرأت عليه بعد ذلك تحويرات وتعديلات أخرجته عن المشابهة الظاهرة بأصله، وألبسته الصورة التى نراها الآن فى النسخة الحالية لإنجيل متى، ذلك أن وحدة العناصر، والعدد، والترتيب، فى النص عند أوريجانوس، وفى حديث أبى هريرة، تنم عن وحدة المصدر لوسيط كل من الرجلين، رغم ما بينهما من قرون عديدة، وافتراقات لا تعبر.

بل نلاحظ أيضاً تطابقاً واضحاً بين العبارة التى جاء بها كل من اكليمندس الاسكندرى وترتوليان على لسان المسيح إذ يقول:

(إذا عدت أخاك، رأيت ربك)، وبين قول الله عز وجل فى حديث أبى هريرة: (لوعدته، لوجدتنى عنده)، فلو أبدلنا لفظ (رأيت) فى العبارة المسيحية، بلفظ (وجدت) فى العبارة الإسلامية لصارت العبارة المسيحية هكذا: (إذا عدت أخاك، (وجدت) ربك - عنده)، وهى عين الرواية الإسلامية، بما ينم عن وحدة المصدر بين الفريقين، ولا يأتى أبداً عن مجرد صدفة أو اتفاق.

وهنا نتساءل عن هوية هذا المصدر المشترك بين النص الإنجيلى والنص الإسلامى، وهو مدخلنا إلى الدعوى الثانية فى كونه مصدراً يهودياً بحتاً:

الدعوى الثانية

المصدر اليهودى المنحول

للنص الإنجيلى والنص الإسلامى

بعد أن أثبتنا أن النص الوارد فى ختام الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى (ص٢٥ : ٢٦ - ٤٦) مضاف إلى أصله، ولا تقوم بينة على وجوده فى النسخة العبرانية لهذا الإنجيل، ننتقل الآن إلى إثبات أن المصدر الذى اقتبسوا منه هذا النص - يترجح عندنا أنه سفر يهودى منحول، وذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

أولاً: ما رأيناه من قبل فى هذا السياق من اقتباس أعظم قديسيهم ومعلميهم من الأسفار اليهودية المنحولة، وعلى رأس هؤلاء بولس ويهوذا ويعقوب كما بيناه من قبل بنماذج من كتاباتهم واقتباساتهم ومصادرهم التى اقتبسوا منها. وكذلك ما رأيناه من قبل بشأن النص المشترك الذى نقله كل من بولس وأبى هريرة فيما أعده الله للصالحين، أو الذين يحبونه. وذكرنا أيضاً المصدر المشترك لهما فى هذا النص، وهو سفر (إيليا) المنحول.

ثانياً: أقر علماؤهم بأن الرسل ومتقدمى الآباء قد أكثروا من النقل من الأسفار اليهودية المنحولة Apocryphal دون تفرقة بينها وبين الأسفار القانونية، وذكروا أنهم

يجدون (بعض الاقتباسات من الأسفار الأبوكريفية اليهودية كانت تؤخذ على أنها صحيحة ومعتمدة وأن النص كان يذكر أحياناً على أنه جاء فى العهد القديم، ثم لا يتيسر لهم أن يهتدوا إلى موضعه منه، وفى نفس الوقت لا يمكنهم أن يهتدوا إلى سفر غير قانونى نقل منه النص. الأمر الذى جعلهم فى بعض الأوقات يفترضون نوعاً من (الدمج) لبعض معان وتعبيرات جاءت فى العهد القديم. وزعموا أن هؤلاء القدماء ربما فعلوا ذلك مجاراة لتقليد كان متبعاً عندهم) بل إنهم قد قالوا أكثر من ذلك تحت ضغط الحقائق التى واجهتهم فى فحص نصوص العهد الجديد. فأقروا بنقل كتبة العهد الجديد من مصادر وثنية، وتقاليد شفاهية غير مسيحية، فقالوا بشأن الآيتين (١٤ - ١٥) من رسالة يهوذا المنقولتين من سفر أخنوخ (.. إنه من المحتمل أن يكون (يهوذا) مقتبساً من أخنوخ الأول ص١ : ٩، وهذا لا ينبغى أن يستدعى الدهشة: إذ رأينا العهد الجديد يقتبس أيضاً من المؤلفين الوثنيين (كما فى الأعمال ص١٧ : ٢٨ ، وكورنثوس الأولى ص١٥ : ٣٣) وأنه لا يخلو من مغزى كون يهوذا لا يذكر أنه ينقل من الكتاب المقدس، وأنه لا ينبغى فى النهاية استبعاد الاحتمال الآخر وهو أن يكون كل من يهوذا، فى الآيتين (١٤ - ١٥)، وكاتب أخنوخ الأول فى ص٩ : ١ ناظرين فى نقلهما إلى تقليد شفاهى) [1].

وهذا الإقرار من علمائهم دليل كاف لإثبات مدى أهمية الأسفار اليهودية المنحولة بالنسبة لكتبة الأناجيل والرسائل، ومدى سلطانها على تقديرهم ووجدانهم.

وفى الواقع فإن الأسفار اليهودية من قانونية أو غير قانونية كانت هى أقرب وأيسر المصادر لكتبة الأناجيل، وسائر أسفار ورسائل العهد الجديد فى القرنين الأول والثانى، خاصة وهم يحاولون فى كتابتها أن يقدموا أقرب صورة إلى الواقع الذى ظهرت فيه العقيدة المسيحية بين اليهود فى فلسطين، وأقرب المؤثرات والتعاليم اليهودية إلى فكر المسيح ووجدانه، مع الحرص الشديد على الإيهام بأن الكتبة هم تلامذة المسيح أنفسهم الذين عاشوا فى تلك الديار، وعاصروا تلك الأحداث، وامتزج وعيهم بتلك التعاليم، فكانت من ثمة أفضل وأولى المصادر التى يجب عليهم أن يستلهموها فى كتابة أسفارهم

١- The New Bible Dic Art. Canon of the N. T., P. 190 - 191.

وعلى رأسها الأناجيل. ولا ينبغى أن نعجب من ذلك، أو يذهب الظن بالبعض أننا نبالغ، فإنما هى شهادتهم على أنفسهم، فقد وجدوا سفراً يدعى (عهود الرؤساء الاثنى عشر) كتبه أحد الفريسيين فى الفترة ما بين سنة ١٠٩، ١٠٧ قبل الميلاد، حسب تقديرهم. فلما فحصوه، وتدبروه، قال كبير منهم: (إن موعظة الجبل) تصور فى مواضع كثيرة منها روح النص الذى لدينا - (أى عهود الرؤساء الاثنى عشر) - بل إنها لتستخدم نفس العبارات التى نراها فى هذا النص. وفقرات كثيرة فى الأناجيل تحتوى على إشارات تدل على الشئ نفسه. ويظهر أن (القديس بولس) قد استعمل هذا الكتاب سميرا صامتاً) [1]!!

ولا يتسع المجال لذكر النصوص والمقارانات التى ذكرها المرجع الذى ننقل منه هذا الشاهد من شواهد نقلهم من أسفار اليهود، وانتحال أفضل تعاليمهم ونسبتها إلى مسيح الناصرة.

ثالثا: بناء على ما قررناه من قبل بشأن أبى هريرة، واهتمامه الشديد باستلهام المصادر اليهودية، وأن النص المشترك بينه وبين بولس (فى كورنثوس الأولى ص٢ : ٩) كان من الضرورى أن يكون له مصدر يهودى، ثم توكيد علماء المسيحية لذلك بتعيين ذلك المصدر وتحديده بأنه سفر (إيليا) المنحول، فإنا نتوقع نفس الأمر أيضاً بالنسبة للنص الحالى المشترك بين أبى هريرة وإنجيل (متى) (ص٢٥ : ٣٦ - ٤٦) والأصل الذى جاءت صورته عند أوريجانوس.

ويتضح ذلك بما بين صورتى النص عند الرجلين من وحدة المضمون، والعناصر، والعدد، والترتيب على ما يظهره هذا الجدول بحرفية النص عند كل منهما:

١- بروتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية - الترجمة العربية جـ٣ ص٢٩.

العدد والترتيب	عناصر حديث أبى هريرة بنصها	العدد والترتيب	النص الإنجيلى عند أوريجانوس
١	(مـــرضـــت) فلم تعدنى	١	فمن حيث (المرضى) كانوا بحق مرضى
٢	(أستطعمتك) فلم تطعمنى	٢	ومن حيث (الجوع) كانوا بحق جوعى
٣	(أستسقيتك) فلم تسقنى	٣	ومن حيث (العطش) كانوا بحق عطاشى

فإذا أضفنا إلى ذلك المقطع الذى جاء عند كل من اكليمندس وترتوليان كجزء من أصل النص الذى اقتبسه أوريجانوس، وهو قول المسيح حسب نقلهما: (إذا عدت (اخاك (وجدت) ربك - عنده)، وقارناه بما جاء عند أبى هريرة فى نفس النص من قول الله عز وجل: (أما علمت أنك لو (عدته) لوجدتنى) عنده؟)، وجدنا أن وحدة الأصل بين كل من مصدر أبى هريرة - أو وسيطه - ومصدر أوريجانوس، وكونه سفرا يهودياً منحولاً، أمر يجب القطع به، ولا وجه للمراء بشأنه بعد هذه البينات.

رابعاً: نجد فى المأثورات اليهودية ما يقطع بأصالة التعاليم التى تعلق بها مضمون النص عند كل من أبى هريرة وأوريجانوس وحسب صورته فى النسخة الحالية لإنجيل متى:

ففيما يتعلق بعيادة (المرضى) نجدهم يطلقون مأثوراً فى ذلك يقول:

(إن من يتقاعس عن عيادة (المرضى) يصبح هو وسافك الدم البرئ بمنزلة سواء).

وفيما يتعلق بشأن السقيا، أو الطعام، من تقديم العون والصدقة لسد حاجة السائل من ذلك، نجد الربانيين من علمائهم يقولون:

(إذا وقف السائل ببابك، فاعلم أن الإله القدوس المبارك قائم هنالك عن يمينه، فإن أعطيته الصدقة فاعلم أن القائم عن يمينه سوف يجزيك ويكافئك. وإن لم تعطه فسوف يعاقبك ذلك القائم عن يمينه) [1].

١- Adam Clarcke,s: Commentaty, Matth. Gospel, Ch 25 b 31 - 46.

وهذا كله قاطع بأن هنالك عندهم أصولاً لهذه التعاليم تضمنتها أسفار لها منزلة القداسة فى نظرهم، وإذا كنا لا نجد فى كتابهم المقدس الذى بين أيدينا بأسفاره المعتمدة وغير المعتمدة تلك التعاليم بنفس النص والعدد والترتيب الذى نجده عند الإمام الإسلامى، والعلامّة المسيحى، والنص الإنجيلى فى صورته الحالية، إلا أننا نرى من حقنا أن نفترض وجود سفر يهودى منحول كان هو المصدر الذى استمد منه الكاتب الإنجيلى، والمحدث المسلم، أو وسيطه.

أما ما عسى أن يكون ذلك السفر اليهودى المنحول فهذا أمر لا يمنع عدم تعيينه وتحديده بالضرورة من صحة الدعوى بكون الحديث الإسلامى يكشف عن مصدر يهودى للنص الإنجيلى بناء على القرائن والبينات التى قدمناها، بما يسقط تماماً اصالة النص الإنجيلى عن كونه من كلام المسيح، ويميط عنه لثام القداسة المفترض للوحى الإلهى. وفى نفس الوقت يسقط الحديث الإسلامى عن كونه من كلام الرسول ﷺ الذى يتنزه عن انتحال تعليم الآخرين من وحى صحيح، أو زيف دخيل.

الفصل الثالث

الأبو كريفيات المسيحية

ولا يتم القول فى نظرنا عن أصول الإسرائيليات فى الإسلام حتى نعرض للأبوكريفيات المسيحية، وهى تلك الأسفار المنحولة على المسيح وتلاميذه، وعلى رأسها الأناجيل غير المعتمدة، كمصادر خصبة لكثير من الإسرائيليات التى راجت عند المسلمين، سواء بشأن مريم والمسيح، أو بشأن أمور اعتقادية أخرى.

وهذه الأناجيل غير المعتمدة كثيرة، وليس من شأننا هنا أن نقرر الصحة لأحد هذه الأناجيل مهما بلغ الأمر من سعة نفوذه، أو تعصب فريق من الناس لشئ جاء به. ذلك أن الأناجيل جميعا من معتمدة وغير معتمدة لا يقوم لدينا دليل قاطع على صحة واحد منها بصفة كلية، فالإنجيل الصحيح غير معلوم وغير موجود. وقد تكون هناك حقائق أو شبه حقائق متناثرة فى جملة تلك الأناجيل، لكننا لا نستطيع أن ندعى، ولا ينبغى أن ندعى، أن الصواب أو الصحة قد اجتمعت لإنجيل واحد معتمد، أو غير معتمد.

وق اقر علماء المسيحية بأن أصول المخطوطات التى وجدوها لأناجيلهم المعتمدة لا تمتد إلى ما قبل القرن الرابع. وإذن فالتوهم باحتمال وجود أصل خطى متكامل لواحد من تلك الأناجيل المعتمدة قبل القرن الرابع لا سبيل إليه عندهم، أو عند غيرهم.

وإذا كان هذا قولهم بشأن أناجيلهم المعتمدة التى اهتموا بحفظها ورعايتها، وأمعنوا فى مراجعتها وضبطها وتهذيبها، فماذا يكون الحال بشأن الأناجيل غير المعتمدة التى حرصوا على إخفائها وإنكارها وتعقبوها بالإبادة والإحراق، ولم تلق اهتماماً بها إلا فى القرون الثلاثة الأخيرة وبعد دثور أصول ومراجع ومخطوطات لا سبيل إليها الآن؟

مهما يكن الأمر، فإن مضامين الأناجيل من معتمدة وغير معتمدة قد وجدت طريقها إلى الكتب الإسلامية وانعكست آثارها واضحة قوية فى كتب التفسير والقصص الدينى. ويبدو أن الأناجيل غير المعتمدة كانت أكثر جاذبية للأهواء الشعبية، فرأينا بعض مضامينها يتردد فى تلك الكتب الإسلامية على نحو أقوى مما نجده بشأن الأناجيل المعتمدة: فنجد نصوصاً كثيرة بشأن المسيح ترد فى هذه الكتب على صورة أقوال تنسب إليه، أو حكايات تروى عنه، يتعذر حصرها فى نطاق الأناجيل أو الأسفار والرسائل المعتمدة. ورأينا منها ما يطابق أو يوافق بعض النصوص التى عثر عليها الباحثون من الأناجيل غير المعتمدة.

وليس بالحتم فى نظرنا أن يكون المسلمون قد اطلعوا على النص فى تلك الأناجيل غير المعتمدة، فقد يتلقونه مثلاً بالرواية عن بعض من أسلم من النصارى أو عن بعض النصارى من طريق العلاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين، وهو أمر طبيعى وميسور عند الألفة والمودة بين الجيران، وزملاء العمل، ورفاق الطريق، وفى الاحتفاء ببعض المناسبات والتقاليد هنا أو هناك.

ومما يؤسف له أن أحداً من الباحثين، فيما نعلم، من النصارى أو المسلمين لم يهتم باستجماع وتحقيق تلك النصوص الإنجيلية فى الكتب الإسلامية، وردها إلى أصولها الموجودة من الأناجيل غير المعتمدة، وهو أمر نلفت النظر إليه، مذكرين من يحتاج إلى التذكرة، أن التراث الإنسانى يجب أن يرتفع فوق كل نزاع، وأن يكون الحرص عليه ولاء للإنسانية جمعاء التى تتخطى كل حواجز اللون والوطن والعقيدة.

لقد انعكست مضامين تلك الأناجيل غير المعتمدة على كتب التفسير والتاريخ والقصص الدينى الإسلامى بصورة شديدة الوضوح عند الطبرى فى منقولاته عن وهب بن منبه الصنعانى، ومحمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة، وبعد ذلك فى سائر كتب التفسير والقصص الدينى عند من تلاهما من مفسرين ومؤرخين.

وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك أيضاً على كتب الأدب على ما نراه فى (عيون الأخبار) لابن قتيبة الدينورى، و (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى.

ولم تكن كتب الصوفية بمعزل من تلك الآثار، فرأينا من ذلك جملة صالحة، عند الأصفهانى فى (حلية الأولياء)، وفى بعض الرسائل الصوفية الرائجة، ولعل المحاسبى فى اقتباساته الدقيقة يستحق نظرة متأنية لا تخلو من مغزى.

على أية حال سنورد بعض تلك النصوص التى وردت فى الكتب الإسلامية بشأن مريم والمسيح والتى ترجع مضامينها إلى تلك الأناجيل غير المعتمدة، أو كما يسمونها (الأناجيل الأبوكريفية).

ونبدأ بالتمهيد لتلك النصوص بأن ننبه إلى بعض ما تورط فيه عبد الله بن عباس من (نصرانيات) بشأن المسيح وأمه ولم يتفطن إلى أصولها المذهبية عندهم، وإلى صريح صدامها مع أصول العقائد الإسلامية، والنص القرآنى ذاته.

ونعتمد فى ذكر النصوص عن ابن عباس على تفسير الطبرى، وذلك لأسباب:

الأول: أن تفسير الطبرى هو أقدم تفسير يقام له الاعتبار فى نظر الباحثين، ويشتمل زبدة كل ما سبق من تفاسير.

الثانى: أن الطبرى فى تفسيره وتاريخه أوغل فى تحقيق السند من كثير من مؤلفى دواوين الحديث وعلى رأسهم البخارى نفسه فى صحيحه كما اثبت ذلك بعض الباحثين [1].

الثالث: أن كل التفاسير التى جاءت بعد الطبرى نقلت عنه، وتأثرت به، وبعضها أورد نصوصه - التى ننقلها عنه منسوبة إلى ابن عباس - متأثراً بسنده، والأكثر نقلوها دون إسناد كمقالات إيمانية.

لذلك اكتفينا به كمصدر أول موثوق بسنده وروايته.

١- أنظر: فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى: المجلد الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧. ص: ١١٢-١١٤، ١١٧، ١٧٢-١٧٤، ٢١٠ إلخ ....

الفصل الرابع

من نصرانيات عبد الله بن عباس

وإذا كان عبد الله بن عباس قد أخذ حظه وافراً فى اقتباس الإسرائيليات سواء فى نصها أو غاياتها، كما رأينا بعض ذلك من قبل، وكما سنفصل جانباً منه فى مبحث آخر، وأسهم عن غير قصد فى طمس الوجه القرآنى. ومنهجه المتميز عن منهج التوراة، فإنه أيضاً قد اقتبس من النصرانيات بغير علم ما يصادم عقيدة التوحيد، ونحن لا نتهم هذا الرجل فى عقيدته، ولكننا نراه عامياً فى الإلمام بعقائد أهل الكتاب وقد وقع فى درك السذاجة الطائشة فيما عرف من عقائد النصارى حتى رددها فى تفسير القرآن حسب ما يروى عنه فى كتب التفسير، وردد المفسرون مقالاته تلك كأنها جائزة، أو لا غبار عليها فى الإسلام، وقد يبالغ البعض فيحسب أن لها أصلا من تعاليم الرسول ﷺ نفسه وإلا لما قال بها ابن عباس!!

وهكذا تتلاعب الأهواء بالإسلام، وكتاب الإسلام!!

ويتضح لنا من نصرانيات هذا الرجل أن معلوماته المسيحية التى رددها قد تلقاها من العامة والدهماء من النصارى، أو من أسلم منهم، ولم يطلع على كتب القوم، ولا تحقق من أصل المقال وإلا لما تردد فى دفعه، والتحرز لعقيدته.

وسنكتفى هنا بذكر مثلين أو ثلاثة من مزالق ابن عباس فى النقل عن عقائد النصارى وترديدها كتعاليم إسلامية صحيحة.

١ - المسيح و (الكلمة)

روى الطبرى فى تفسيره لسورة آل عمران بسنده عن عكرمة عن ابن عباس: (قوله: (مصدقاً بكلمة من الله) قال: عيسى بن مريم هو (الكلمة) من الله اسمه المسيح). (١)

وروى بسند آخر عن محمد بن سعد بسنده عن ابن عباس: (أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) قال: (الكلمة) التى صدق بها: عيسى) . (٢)

وكرر الطبرى نفس الرواية مرة أخرى: (وروى عن ابن عباس أنه قال: (الكلمة) هى عيسى). (٣)

وروى عنه أيضاً بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس: (فى قوله: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) قال: عيسى هو (الكلمة) من الله). (٤)

والمزلق فى هذه النصوص التى تروى عنه أنه استخدم لفظ (كلمة) معرفاً بالألف واللام فقال: (الكلمة) - وهو ما لم يرد قط فى القرآن، ولا يمكن أن يرد فيه، خاصة بشأن ابن مريم. بل ولا يجوز لمسلم أن يستخدم هذا اللفظ معرفاً بشأن المسيح أو أى مخلوق آخر، لأن التعريف يعنى التعيين والتحديد، وتصبح الصفة مقصورة عليه، مختصة به.

وما تورط فيه ابن عباس بهذا التعريف لذلك اللفظ هو غاية ما يطلبه النصارى من مؤمن بدعوى الألوهية لابن مريم:

فتعريف هذا اللفظ مع استخدامه بصيغة التذكير يوافقان عقيدتهم تماماً فى إدعاء الألوهية له تأسيساً على أول آية دونوها بشأنه فى إنجيل يوحنا حيث جاءت هكذا:

(فى البدء كان (الكلمة) .و(الكلمة) كان عند الله. وكان (الكلمة) الله). (٥)

١- تفسير الطبرى: جـ ٣ ص١٧٢.
٢- نفس الموضع.
٣- جـ٣ ص١٨٥.
٤- نفس الموضع.
(نحن نعتمد فى هذا البحث تفسير الطبرى حسب الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٤ هـ).
٥- إنجيل يوحنا: ص-١:١.

فالتعريف والتذكير واضحان صريحان، وهما شرط الاعتقاد بالألوهية له.

والنصارى لا يفهمون لفظ (الكلمة) كما يفهمه المسلمون بمعنى اللفظ، أو القول، أو الحكم، أو التعليم، أو الأمر، أو الاعتقاد، أو ما يشبه ذلك، وإنما يفهمونه عندما يطلق معرفاً بشأن المسيح أنه يعنى عقل الله الذى هو ذات الله وجوهره، ولذلك يطابقون بينهما، ويجعلونهما حقيقة واحدة، فمن ثمة ساغ لهم أن يقولوا عنه: إنه (ابن الله) أى من عين الجوهر والطبيعة الإلهية، أو أن يقولوا: إنه الله ذاته، وكل ذلك مناف لعقيدة التوحيد، وخروج صريح عن أصول الكتب الإلهية الصحيحة.

ولا شك أن تورط ابن عباس فى ترديد ذلك اللفظ معرفاً هو انحراف صريح من حيث لا يقصد ولا يعلم.

والعجب الذى يعزز دعوانا أننا نراه وحده الذى انفرد بترديد هذا اللفظ معرفاً بين العديد من أقوال الصحابة والتابعين والمفسرين الذين روى عنهم الطبرى وكانوا متحرزين عند ذكر هذا اللفظ من تعريفه أو تذكيره!

على أية حال سنرى فى مثل آخر أن ما ندعيه فى هذه القضية لم يصدر عفواً عن ابن عباس!

٢- هل سجد يحيى للمسيح؟!

يجمع المسلمون والنصارى من قبلهم على أن (يحيى بن زكريا) المدعو عند النصارى (يوحنا المعمدان) نبى من أنبياء بنى إسرائيل، ظهر هو والمسيح ابن مريم فى حقبة واحدة اختتمت بها النبوة فى بنى إسرائيل.

وعندما يعرض القرآن لذكرهما معاً يجعلهما على مستوى واحد من النبوة، ولم نعلم منه قط أنه أومأ إلى ابن مريم بشأن يجيز لابن زكريا أن يسجد له، ولا كان هنالك خبر قط أن نبياً من الأنبياء سجد لنبى آخر كائناً ما كان شأنه.

والأنبياء لا يسجدون إلا لله وحده.

ولكن ابن عباس يأبى إلا أن يقول عن يحيى إنه سجد لابن مريم!!

والرجل عنده ولاء للنصرانية يحمله على تصديق أباطيلها، وإشاعة ذلك بين المؤمنين!!

فقد روى الطبرى بسنده إلى ابن جريج عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: (مصدقاً بكلمة من الله) قال: (كان عيسى ويحيى ابنى خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إنى أجد الذى فى بطنى (يسجد) للذى فى بطنك فذلك تصديقه بعيسى: (سجوده) فى بطن أمه (له). وهو أول من صدق بعيسى، وكلمة عيسى، ويحيى أكبر من عيسى).[1]

وهذا التفسير من ابن عباس باطل تماماً، ويطفح بالوثنية النصرانية القائلة بتأليه ابن مريم منذ كان الحمل به فى أحشائها، وبه تخرصوا دعوى سجود الجنين يحيى بن زكريا فى بطن أمه، والمزمع له أن يكون نبياً. للجنين ابن مريم المزمع بزعمهم أن يكون إلهاً متأنساً لأنه فى اعتقادهم (ابن الله). ومن ثم كان قولهم إن يحيى - يوحنا المعمدان - الجنين لم يكن سجوده فى بطن أمه لابن مريم كإنسان، بل كان سجوده له كإله. فهو إذن ساجد للاهوت وليس للناسوت.

وهذا الذى نقله ابن عباس ورِدده بين المسلمين يكشف لنا إحدى الصيغ الشعبية للعقائد المسيحية التى تلقفها هؤلاء المسلمون دون إطلاع أو تحقيق لعقائد النصارى أو مذاهبهم ومقالاتهم، وأخذوها عنهم حقيقة إيمانية، دون أن يفطنوا إلى صريح صدامها مع عقيدة التوحيد، وأنها تقول بتأليه ابن مريم، وهو وثنية صريحة يقتل من قال بها من المسلمين.

وأصل هذه المقالة وارد فى إنجيل لوقا.

على أن صيغة هذا الإنجيل فيما أطلعنا عليه من ترجماته الكثيرة فى الإنجليزية والفرنسية والعربية لم تذكر قط لفظ (سجد) أو لفظ (السجود). وإنما هذا نسمعه كثيراً، ونقرأه كثيراً، فى رواية، وتفسير، أصحاب المذاهب والشيع من مؤلهى المسيح الناصرى، فيضفون على النص الأصلى أفكاراً ودلالات تتجاوز حدوده، ليصبغوه

١- تفسير الطبرى جـ٣ ص١٧٢.

بالصيغة التى يرتأونها، وتوافق أهواءهم - وهو من ثمة من قبيل الدخيل الزائف الذى ينشأ لغايات معينة.

وقد جاء نص إنجيل لوقا لأصل هذه الرواية هكذا حسب الترجمة العربية:

(فلما سمعت إليصابات سلام مريم (ارتكض) الجنين فى بطنها. وامتلأت إليصابات من الروح القدس. وصرخت بصوت عظيم وقالت: مباركة أنت فى النساء. ومباركة ثمرة بطنك. فمن أين لى هذا: أن تأتى أم ربى إلى. فهوذا حين صار صوت سلامك فى أذنى (ارتكض) الجنين بابتهاج فى بطنى).[1]

فكل ما فى النص الإنجيلى كما نرى حسب الترجمة العربية أن ما فى بطن إليصابات (ارتكض) أى اضطرب وتحرك فى بطنها، وهذا ليس فيه أدنى دلالة على (السجود).

ونفس الحال نجده فى الترجمات الإنجليزية التى تستخدم الفعل Leaped أو الفعل Stirred وكلاهما بمعنى الحركة والقفز والاضطراب، وليس فيهما أيضاً أدنى دلالة على السجود.

بل أن بعض هذه الترجمات الإنجليزية يترجم هذا النص بما يدل على أن الحمل لم يكن قد تحقق بعد فى أحشاء مريم فى تلك الآونة التى زعموا أن فيها سجد جنين إليصابات لجنين مريم، ففى الترجمة المشهورة المسماة New International Version نجد العبارة تأتى هكذا:

Blessed are you among women, and blessed is the child you will bear.

أى: مباركة أنت فى النساء، ومبارك الوليد الذى (ستحملين به).

وسلكت نفس المسلك الترجمة الإنجليزية المسماة: Good News Bible

وجملة القول فى ذلك إذن أن ما اقتبسه ابن عباس هنا إنما هو نصرانية محرفة عن

١- إنجيل لوقا: ص١ : ٤١-٤٤.

نص وارد بالإنجيل بشأن البشارة لمريم بأنها ستحمل بوليدها على ما بينه ذلك النص فى الأصول التى بين أيديهم.

ومن ثمة فحيث لم يكن قد تحقق الحمل بعد فلا وجه لتفسير حركة الجنين فى بطن إليصابات هذه التفسيرات الوثنية بأنه سجد له.

ثم على فرض أن الحمل كان متحققاً فإن ارتكاض الجنين أمر واقع فى بطن كل أم حبلى. تلحظ ذلك كل ذات حمل كلما تقدمت فى حملها واقتربت من أشهرها الأخيرة، فهو أمر طبيعى معتاد تعرفه المرأة منذ حملها الأول، ولا تحتاج فيه إلى خبرة عويصة من الروح القدس، أو الروح غير القدس، ولا دلالة فى ذلك على سجود الجنين لهذا الوثن أو ذاك!

ثم كيف استباح ابن عباس أن يقول ما قال والمفترض فيه أنه يعلم أن يحيى نبى وأنه يعلم أيضاً أن ابن مريم مجرد إنسان كيحيى وغيره، وأنه بالغا ما بلغ لا يتجاوز مرتبة نبى؟!

إن النصارى عندما حرفوا هذا النص وحملوه على معنى (السجود) كانوا على وعى بأهدافهم العقائدية، ومراميهم المذهبية، التى تقوم على دعواهم بأن اتحاد اللاهوت بالناسوت قد تحقق فى أحشاء مريم منذ بدء الحمل بالذى يدعونه المسيح، فكان من ثمة فى نظرهم إلها متأنسا منذ بدء البشارة وتحقق الحمل. وأنها لم تلد إنساناً فقط، بل ولدت الإله نفسه!!

وعلى ذلك فإنهم عندما قالوا بسجود يوحنا المعمدان فى بطن أمه للذى فى بطن مريم كانوا على وفاق مع مذاهبهم، وكانوا منطقيين مع أنفسهم حسب ما تمليه عقائدهم بتأليه هذا الناصرى!!

أما هذا الذى التقط أقوالهم، ورددها بين المسلمين، فلا ندرى كيف نحكم بشأنه، لأنه إن كان قد فعل ذلك عالماً بمذاهبهم، واعياً بمرامى مقالاتهم فقد خرج إذن من عقيدة التوحيد، وانخلع من ملة المسلمين!

وإن كان قد فعل ذلك جهلاً بغير علم لم ندر كيف نأخذ ديننا عن قوم قمم العلم

فيهم يقولون بما لا يعلمون!

ترى: هل يتطلب الأمر بينة أخرى على طيش ابن عباس فيما ردد من تلك النصرانيات الوثنية؟!

على أية حال فلا بأس بذكر مثال آخر!!

٣- الحمل بالمسيح

وثالثة الأثافى هى قول ابن ابن عباس فى روايته لخبر الحمل بالمسيح: (ما هى إلا أن حملت فوضعت)!![1]

ومنشأ هذا الاعتقاد الوثنى يرجع أصلاً إلى الغنوسيين Gnostics الذين تبنوا الحركة المسيحية منذ بواكيرها، وازدهر مذهبهم فى القرنين الثانى والثالث، وأصل مذهبهم الاعتقاد بالثنائية المطلقة فى الوجود.

وقد حكت لنا كتب التاريخ المسيحى خبر بعض من قالوا بهذه المقالة:

فأحد هؤلاء كان يدعى (إليان): وقد ذكر ابن كبر مقالته هكذا:

(ومنهم من كان يقول: لم تحمل به مريم تسعة أشهر، بل مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب، لأن الكلمة دخلت من أذنها، وأخرجت الولد من ساعتها: وهى مقالة (إليان) وأشياعه).[2]

وقال بهذه المقالة أيضاً رجل آخر يدعى (فالنتينوس Valentinus) حكى خبره ابن العبرى هكذا:

(وفى هذا الزمان نبغ فى البيعة من المخالفين رجل أسمه (ولنطيانوس) وكان يقول: إن المسيح أنزل معه جسداً من السماء، واجتاز بمريم اجتياز الماء بالميزاب، أى لم يأخذ منها شيئاً).[3]

وكرر هذه الرواية مارى بن سليمان (١١٤٧م- ٥٤٢هـ) فى كتابه المجدل، وجاءت

١- تفسير الطبرى: جـ١٦ ص٥٠.

٢- ابن كبر: مصباح الظلمة ص-٣٩.

٣- ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول: ص-٧٢.

هكذا:

(وظهر رجل اسمه (والنطينوس) يقول: إن المسيح أنزل معه من السماء جسداً وأنه جاز فى مريم مثل الماء يجتاز فى المجرى من غير أن يأخذ شيئاً منها).[1]

وكان أقوى الدعاة الغنوسيين الذين رسخوا هذه المقالة هو (مرقيون Marcion) المتوفى بعد سنة ١٧٠م، الذى أنكر التوراة، ونبوة موسى، ورفض سائر الأناجيل المسيحية إلا إنجيل لوقا بعد حذف الإصحاحات الثلاثة الأولى منه، مع اقتباس بعض رسائل بولس بعد إدخال تعديلات فيها تلائم مذهبه، ونحى كل ما سوى ذلك من رسائل وأناجيل، واعتبرها محرفة ودخيلة واتهم تلامذة المسيح بتحريف مذهبه.

وقد لخص ابن العبرى مقاله مرقيون عن أصل المسيح وطبيعته فقال:

(وظهر أيضاً رجل يسمى (مرقيون) وقال: إن الآلهة ثلاثة: عادل، وصالح، وشرير:

وإن العادل أظهر أفاعيله فى الشرير وهو (الهيولى) فخلق منها العالم.

ولما رأى الصالح العالم قد انجذب إلى الشرير أرسل ابنه ليدعو الناس إلى عبادة أبيه (الصالح)- فأتى، ونسخ التوراة المتضمنة لسنة (العدل) بالإنجيل الذى هو متضمن سنة الفضل.

فهيج (العادل) عباده عليه.

فأمكنهم من نفسه حتى قتلوه.

وبقيامته من بين الأموات سبى الناس، وأصارهم إلى عبادة أبيه..).[2]

وكان آخر الكبار الذين رددوا هذه المقالة، وبلغ بالثنائية غايتها القصوى (مانى Mani) المتوفى حوالى ٢٧٥م، إذ أنكر الجسد الإنسانى للمسيح، وردد قول الظاهريين Docetics بأنه لم يكن ذا جسد مادى وأنه ولد من ساعته رجلاً سوياً تاماً كاملاً، لا يمكن لمسه، أو الإمساك به.

١- اخبار بطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل لمارى بن سليمان: ص-١٤ .ط-١٨٩٩ مسيحية - رومية الكبرى.
٢- ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص-٧٢.

وقد جاء فى أمانة (برصوما) التى نطق بها أمام (زينون) ملك الروم، فى زمن (فيروز) ملك الفرس قوله بشأن المسيح:

(.... وتردد فى العالم إذ هو لابس شبه العبد كشهادة فولوس الرسول، ولا أقول إن ذلك الشبيه كان (فارغاً) و(مجرداً) كقول: (مانى) و(مرقيون) وغيرهما من معلمى الطغيان....).[1]

وردد آخرون غير هؤلاء تلك المقالة الجاهلية عن كون المسيح ولد لساعة البشارة به، وهم من النصارى، ويعلمون ما دونه آباؤهم من قصة الميلاد فى إنجيلى (متى) و(لوقا) - بما يثبت الحمل به تسعة أشهر كاملة كسائر خلق الله.

وهم فى كل ذلك يستلهمون المذهب الغنوسى Gnosticism الذى ينكر بشرية المسيح ابن مريم.

وتقوم مقالة هؤلاء على أن الله عز وجل خير مطلق إذ هو روح خالص.

أما العالم فهو فى نظرهم شر مطلق، لأنه مادة صرف.

وعندهم أنه لا يجوز لنا من ثمة أن نقول عن الله عز وجل أنه خالق هذا العالم الشرير، لأن هذا يؤدى إلى الظن بممازجته للشر، واختلاطه به، وهو ما لا يجوز فى حقه، ويستلزم النقص فى طبيعته، إذ خلق العالم على هذا النحو من الفساد، وعجز عن استدراك نقصه، ونفى الشر عنه.

لذلك لما أرادوا تفسير الكيفية التى تم بها خلق العالم، ووقوع الشر به، زعموا أن الله الذى هو الخير المطلق، والروح الخالص، فاضت منه فيوضات روحانية كثيرة، كان كل فيض منها كلما ابتعد عن مصدره الأول، واقترب من هذا العالم، تضاءلت روحانيته، واكتسب صفات المادة، وتفاعل مع هذا العالم، وتكيف مع عناصره.

ومن ثمة أمكن لأحد هذه الفيوضات أن يتحقق له الاستحواذ على الطبيعتين معاً: الطبيعة الروحانية الخالقة التى انبثقت من مصدر الفيوضات، والطبيعة المادية

١- أخبار بطاركة كرسى المشرق - من كتاب المجدل لعمرو بن متى ط - رومية الكبرى ١٨٩٩ مسيحية: ص-٣٣.

الصرف التى اكتسبها من هذا العالم الذى هبط إليه.

وعلى ذلك قام هذا (الأيون) بخلق العالم، وخلق الإنسان، وبث فيه الطبيعتين، فصار على هذا النحو المزدوج من روح وجسد.

وهذا الخالق هو على دعواهم إله التوراة الذى جاء نبأ خلقه للعالم فى سفر التكوين، وكان موسى رسولاً له.

ومن ثمة فهو إله شرير لأنه مخالط للمادة التى هى أصل الشر، وخلق العالم ناقصاً يسوده الشر لأنه عاجز عن نفى الشر عنه، لكونه محدوداً فى ذاته واكتسب صفات هذا العالم.

وهو إذن ليس الإله الحقيقى المطلق الخير والصلاح.

وعليه، فلا ينبغى الاعتقاد به، أو طاعة ناموسه، أو رسوله.

أما الذى ينبغى الاعتقاد به فى مذهبهم فهو زعمهم أن الإله الحق، المطلق الخير والصلاح، لما رأى ما حل بالعالم بسبب هذا الإله الصانع Demiurge أرسل ابنه فى صورة إنسان بغير جسد حقيقى، فلا يأكل ولا يشرب، ولا تلمسه الأيدى، أو تمسك به، وكل ذلك لكى لا يتلوث بالشر إذا لبس جسداً من مادة هذا العالم الشرير.

وعرف هذا المذهب عند أصحابه باسم المذهب الوهمى، أو الخيالى، أو الظاهرى Docetism من الفعل اليونانى Dokeo أى يتخيل، أو يتوهم، أو يبدو له.

وعلى ذلك، فليس ذلك الابن، الذى هو المسيح بزعمهم، بحاجة إلى مراحل نمو ينتقل فيها من مرحلة الطفولة، إلى مرحلة الشباب، إلى مرحلة الشيخوخة وهكذا، لأن النمو من خصائص الجسد لا الروح.

ولما كان المسيح هنا بغير جسد - حقيقى - فلا حاجة إلى ذلك، بل يأتى فجأة هكذا رجلاً تاماً كاملاً.

ومن ثمة فالحمل به لا يحتاج إلى وقت كما هو المعتاد فى سائر الناس، لأن شهور الحمل إنما يراد بها أن تنقضى فى تخليق بدن الجنين على مراحل حتى يستكمل

تكوينه، أما المسيح فليس له ذلك للأسباب التى ذكرنا، وإنما كان الحمل به - إن جاز أن يسمى حملاً - مجرد بشارة نقلت إلى مريم سمعتها، فتقبلتها، فمر خلالها مرور الشعاع من الزجاج الصقيل، أو مرور الماء فى المجرى وقام المسيح رجلاً مستوياً تاماً كاملاً فى صورته.

وإذا كان ذلك فكل ما ينسب إليه من أفعال الأكل والشرب والمشى والانفعال بالحزن والألم، والتزام الثياب، إنما كان على قولهم مجرد تظاهرات منه ليأنس إليه الناس.

واضح إذن من هذا المذهب أنه يؤله المسيح تأليهاً مطلقاً.

كذلك فإنه يجعله إلهاً أكمل من الإله خالق العالم.

كذلك فإنه لا يستقيم القول به إلا برفض عقيدة التوحيد.

وبعد ذلك كله ينفى ما روته الكتب المقدسة جميعاً من كون الله الواحد هو خالق هذا العالم.

والنصارى الذين لا يأخذون بهذا المذهب ينكرونه لأنه يصادم ما جاء فى الأناجيل عن قتله وصلبه وما تضمنه بعضها من قصة ميلاده وكونه جسداً حقيقياً.

وهذا المذهب الوثنى يصادم قرآن المسلمين صداماً مباشراً، فهذا القرآن يقول: (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. وأمه صديقة. كانا يأكلان الطعام)-[1] فأقر بأنه كسائر الناس يأكل أكلاً حقيقياً عن حاجة حقيقية إلى ذلك، مبيناً هذه الحقيقة بالمساواة التامة بينه وبين أمه فى ذلك الاحتياج.

وحيث كانت مريم ذات جسد مادى حقيقى تلبى احتياجاته من الطعام، وأقر هؤلاء أنفسهم بهذه الحقيقة.

وحيث قرر القرآن بهذا النص المساواة المطلقة بين المسيح وأمه فى طبيعة الجسد واحتياجاته.

فالناتج النهائى إذن أن المسيح جسد حقيقى، واحتياجه إلى الطعام احتياج حقيقى،

١ - المائدة: ٧٥.

وفعل الأكل منه فعل حقيقى.

وعلى ذلك فالقرآن لا يمكن بحال أن يأذن بمثل تلك المقالة الكفرية بشأن المسيح، خاصة وقد فصل القول تفصيلاً فى سورة مريم التى أورد فيها قصة الحمل به منذ البشارة حتى الولادة، وما عانته خلال ذلك من خوف، وهروب، واستتار عن الناس، وما كانت تكابده من وحدة، حتى بلغت بها الآلام غايتها القصوى ساعة وضعه عندما أمسكت بجذع النخلة تتحامل عليه من شدة المخاض وهى تصرخ أن الموت أهون مما هى فيه: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً)-[1] ثم ما عانته بعد ذلك من خزى وعار من قومها حتى اتهموها بالزنا، واحتراف البغاء.[2]

ولو أن الأمر كان على ما زعمه هؤلاء الوثنيون الذين ردد مذهبهم ابن عباس، وتم لساعته، لما كان من أمر مريم ما كان، مما ذكره القرآن وغير القرآن لأن الأمر كان يتم قبل أن تفكر مجرد تفكير فى الحركة والانتقال من حجرة إلى حجرة فى منزل واحد، فضلاً عن التفكير فى الهرب من قرية إلى قرية، أو من مدينة إلى أخرى، لأن ذلك يحتاج إلى وقت يتجاوز الساعات والأيام، ويمتد من الأسابيع إلى الشهور.

ترى: أين كل هذا مما ذهب إليه ابن عباس ومن على شاكلته من الذين يرددون هذا الكفر البواح؟!

إن النصارى أنفسهم يرفضون هذا المذهب رغم قولهم بالذى قال به من تأليه ابن مريم لعلمهم بمراميه الخبيثة فى نظرهم، فما بال هذا العربى من بيت النبوة قد رضى لنفسه أن يكون مجرد بوق لهم يردد ما ينسخ به عقيدة نبيه، ويبلبل فكر المؤمنين؟!

لعل غاية العذر له أن نقول: إنه لم يكن يعلم!!

وويل لنا ممن لا يعلمون!!

١- سورة مريم: ٢٣.

٢- مريم: ٢٧-٢٨: (فأتت به قومها تحمله قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً. ياأخت هرون: ما كان أبوك أمرأ سوء، وما كانت أمك بغيا).

الفصل الخامس

المجموعة الثانية

روايات إسلامية

لأصول وردت فى الأناجيل غير المعتمدة

ونعرض الآن لبعض النصوص الإسلامية التى وردت فى كتب التفسير وترتد فى أصولها الصحيحة إلى الأناجيل غير المعتمدة.

ونبدأ بذكر النص الإسلامى ثم نقرنه بالإنجيل غير المعتمد الذى ورد به مضمونه الأصلى، مع التعريف بذلك الإنجيل على ما قرره علماء المسيحية من ذوى الاختصاص.

النص الأول

الحمل بمريم وتسمية أبويها

قال الطبرى فى تأويل قوله تعالى: (إذ قالت امرأة (عمران): رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً، فتقبل منى، إنك أنت السميع العليم) .... وأما امرأة عمران فهى أم مريم ابنة عمران أم عيسى بن مريم صلوات الله عليه، وكان اسمها فيما ذكر لنا (حنة) ابنة فاقوذ بن قتيل، كذلك حدثنا به محمد بن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحق فى نسبه.

(وقال غير ابن حميد: ابنة فاقود (بالدال) ابن قتيل.

(فأما زوجها عمران فإنه: عمران بن ياشهم) .... كذلك حدثنا ابن حميد قال:

حدثنا سلمة عن ابن إسحق فى نسبه ....

(وكان سبب نذر (حنة) ابنة فاقوذ امرأة عمران الذى ذكره الله فى هذه الآية فيما بلغنا: ما حدثنا به ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال حدثنى محمد بن اسحق قال:

(تزوج زكريا وعمران أختين، فكانت أم يحيى عند زكريا، وكانت أم مريم عند عمران. فهلك عمران وأم مريم حامل بمريم فهى جنين فى بطنها.

(قال: وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، وكانوا أهل بيت من الله جل ثناؤه بمكان. فبينما هى فى ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فحملت بمريم. وهلك عمران. فلما عرفت أن فى بطنها جنيناً جعلته لله نذيرة. و(النذيرة) أن (تعبّده) لله: فتجعله حبساً فى الكنيسة، لا ينتفع به بشئ من أمور الدنيا).[1]

ونلاحظ فى هذا النص من منقولات الطبرى عن ابن إسحق أن اسم أم مريم هو (حنة)- واسم أبيها هو عمران بن (ياشهم)- وهذا الاسم (ياشهم) هو إحدى صور قراءة الاسم فى رسمه الأفرنجى هكذا Joachem وينطقه المسيحيون المحدثون فى العربية (يواقيم).

والمسيحيون لا يقولون (عمران بن يواقيم) بل يسقطون الاسم (عمران) ولا يعرفونه لأنه لم يرد قط فى مصادرهم، وإنما يضع بعض المفسرين الإسلاميين هذا الاسم مراعاة لبعض النصوص القرآنية التى تنسب مريم إليه كقوله: (ومريم ابنة (عمران) التى أحصنت فرجها)[2] أو قوله: (إذ قالت امرأة (عمران) رب إنى نذرت لك ما فى بطنى).[3]

وبصرف النظر عن إصابة المسلمين أو خطئهم فى فهم الاسم عمران على أنه الأب المباشر لمريم، أو أنه الأب الأكبر الذى يرتد إليه نسب عشيرتها فالمهم أن هذا النص الإسلامى قد ذكر أن اسم أبيها هو (يواقيم) أو ابن يواقيم.

١- تفسير الطبرى: ج٣ ص١٥٧ - ١٥٨.
٢- التحريم: ١٢.
٣- آل عمران: ٣٥.

وبذلك عرفنا من طريقه أن أم مريم تدعى (حنة) وأن أباها يدعى (يواقيم).

ولم يكن المسيحيون يعلمون شيئاً عن اسمى أبويها من الأناجيل والأسفار المعتمدة، أو من أية وثائق يعتقدون بصحتها إلى أن اكتشفوا ما يسمى (إنجيل يعقوب) فوجدوا به تسمية أبويها على هذا النحو، واستوثقوا من كونه المصدر الحقيقى للقدماء الذين كانوا يذكرون اسمى أبويها هكذا، ولم يكونوا يعلمون الأصل الذى أخذوا عنه ذلك.

كذلك فإن قصة عقم والدى مريم، ثم هلاك أبيها بعد الحمل بها، ونذر أمها إياها، وحملها إلى الهيكل فى الثالثة من عمرها لتربى على أيدى الكهنة وتحبس على عبادة الله فيه لم يكونوا يعلمون به من مصادرهم إلى أن وقعوا على ذلك فى هذا الإنجيل.

ومن مقارنة النص الذى نقله الطبرى عن ابن إسحق فى قصة الحمل بمريم بمضمون إنجيل يعقوب هذا كما لخصه الثقات من علمائهم يتضح أن الرواية الإسلامية مأخوذة أصلاً عن هذا الإنجيل مع شئ من تصرف الرواة وتحريفهم.

والدليل على ذلك أننا نرى هذا الإنجيل: يقدم لنا كلا من الرجل (يواقيم) والمرأة (حنة) كزوجين عقيمين، لذلك لم يكن من حق يواقيم أن يقدم قرباناً إلى المعبد فى أورشليم. ومن ثمة ذهب إلى البرية ليصوم أربعين يوماً وأربعين ليلة. ولما ظنت زوجه حنة أنه قد هلك نزلت إلى حديقتها تصلى، فظهر لها ملاك الرب، وبشرها بأن ستحمل. فنذرت حنة وليدها للرب. فلما وضعت دعت الوليدة باسم (مريم). وفى الثالثة حملت مريم إلى المعبد لتربى على أيدى الشيوخ والكهنة.[1]

وهذا إذن مضمون ما ذكره هذا الإنجيل عن قصة الحمل بمريم إلى أن حملت إلى الهيكل فى الثالثة من عمرها، وهو ما يناظر النص الإسلامى الذى قدمناه، وينحصر فى نفس حدوده.

غير أن هذا الإنجيل قد جاء أيضاً بقصة حمل مريم بالمسيح إلى أن وضعته أثناء الاكتئاب فى مغارة بأحد الكهوف فيذكر: أن مريم لما بلغت الثانية عشرة من عمرها اختير لها رجل أرمل مسن صاحب أولاد يدعى (يوسف) ليكون زوجها لها. لكنه قام

1- Joseph B. Tyson: The New Testament and Early Christianity, P. 199.

منها مقام الحارس فقط، صائناً لحرمتها، وحافظاً لبكوريتها غير أن مريم قد وجدت حبلى. وخاف يوسف أن يكون قد قصر فى حراستها بما أتاح لفاسق أن يفجر بها. وحاكمهما الكهنة بتجريعهما الماء المر، محاكمة بقيت قصتها بعدهما. وفى الاكتتاب الذى تم فى عهد أغسطس قيصر ذهبا إلى بيت لحم بلدة يوسف. وهنالك ولد يسوع فى أحد الكهوف.[1]

وهذا الجانب الخاص بحمل مريم بالمسيح دون مباشرة جنسية من يوسف النجار، ومحاكمة الكهنة له ولمريم بسبب ذلك، يعنى افتضاح مريم، واتهامها بالفاحشة من الكهنة ومن قومها، وهو ما لا تصرح به رواية إنجيل متى أو رواية إنجيل لوقا، وكلاهما من الأناجيل المعتمدة، بل تمضى هاتان الروايتان إلى الطريق المقابل، مع الإدعاء بأن يوسف كتم ذلك الأمر، وسترها، ولم يعلم به أحد، وكل ذلك يناقض حقائق التاريخ التى تؤكد تلك الفضيحة، وأن ابن مريم عانى من جرائها مدة حياته، وكان الإسرائيليون بسببها يطعنون فى نسبه ويزعمون أنه ولد من زانية، أو أنه من صلب رجل آخر غير الذى ينسب إليه وهو يوسف النجار.

وهذا الجانب الذى أومأ إليه هذا الإنجيل غير المعتمد أكده القرآن.

وسنتناول هذه القضية بدراسة تثبت هذه الحقيقة بمشيئة الله تعالى.[2]

وعلينا إذن أن نتعرف على هذا الإنجيل الذى تضمن هذه الأخبار.

فيدعى أحياناً - وهو الأشهر والأشيع - (إنجيل يعقوب) أو (سفر يعقوب): The Book of James.

ويدعى أيضاً بسفر (ميلاد مريم) Nativity of Mary.

وكذلك يدعى بكتاب (رؤيا يعقوب) Apocalypse of James.

وهذان الاسمان يردان فى سياق هذا الإنجيل، ونصه الأصلى.

١- Ibid., P. 199.

٢- هذه الدراسة هى كتابنا: (سر مريم) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٤ مكتبة الزهراء، وسنة ٢٠٠٤ مكتبة النافذة طبعة ثانية مزيدة بتصوير لوثائق أسقطها الخصم فى نشرته الجديدة لمصادره.

كذلك يدعى هذا الإنجيل باسم: (إنجيل البدايات ليعقوب).

Protevangelium of James أو Protgospel of James

وأولى هذه التسميات بالقبول هى هذه التسمية الأخيرة بأنه (إنجيل البدايات)،[1] لأنه فعلاً يحكى كيف كانت بدايات الأمر بشأن مريم فى الحمل بها وولادتها، وحملها إلى المعبد، واقترانها بيوسف النجار. ثم بشأن بشارة حملها بالمسيح الذى ينتهى هذا الإنجيل بخبر ولادته فى أحد الكهوف، وهذه كما نرى أحداث تسبق بدايات الأناجيل الأخرى المعتمدة.

وهذا الإنجيل رغم أن الكنيسة ترفض إقراره، إلا أنه قد ترك بصمته واضحة فى تعاليمها وعقائدها كما سنرى فى هذا السياق حيث أثر على الإيمان المسيحى بنفس الدرجة التى للأناجيل المعتمدة.

وقد أفاد مؤلف هذا الإنجيل من روايتى الميلاد عند كل من متى ولوقا، واقتبس من عباراتهما.

ويرى البعض احتمال ظهور هذا الإنجيل وشيوعه فى القرن الثانى إذ يرون فى كتابات يوستينوس الشهيد المتوفى سنة ١٦٥ ما ينم عن معرفته بمضمونه، ومن ثمة يمكن تحديد ظهوره ما بين نهاية القرن الأول ومنتصف القرن الثانى، وعلى أقل تقدير فإن ظهوره لا يمكن أن يتأخر عن نهاية القرن الثانى إذ كان العلم به شائعاً فى القرن الثالث.

وفى نهاية هذا الإنجيل نرى المؤلف يشير إلى نفسه زاعماً أنه (يعقوب) ولكن هناك عدة أشخاص كانوا يحملون هذا الاسم قد ورد ذكرهم فى الأناجيل الثلاثة المتفقة Synoptics، أحد هؤلاء (يعقوب بن زبدى)، والآخر (يعقوب بن حلفى). والثالث ذكره متى فى ص١٣ : ٥٥، ومرقس فى ص:٦ :٣ على أنه أخ ليسوع وذلك مع ذكر أسماء إخوة آخرين، والإلماح إلى أخوات له دون ذكر أسمائهن. كما يشار إليه أيضاً فى أعمال الرسل على أنه أخ ليسوع.

١- ربما بدا للبعض أن يترجمه باسم (الإنجيل الأول) وهذا فى نظرنا ظاهر الخطأ، لذلك نحن مقتنعون تماماً بصحة ترجمتنا له بأنه (إنجيل البداية) أو (البدايات) لأن ذلك هو الأصح والأولى، وهو الأنسب أيضاً لمضمونه.

ومن ثمة فمن المحتمل أن يكون مؤلف هذا الإنجيل قد قصد إلى الإبهام بأن يعقوب الذى هو أخ ليسوع هو كاتب هذه الوثيقة، وبذلك لو صح هذا الزعم يصبح يعقوب هذا شاهد عيان للأحداث المذكورة بما يجعل من تدوينه هذا مبرراً لتوثيق القصة.

وقد وردت الإشارة فى القصة إلى أبناء ليوسف وإن لم تذكر أسماؤهم. فإذا أعتبرنا المؤلف أخاً ليسوع حسب هذا الزعم، فهو إذن أخ غير شقيق، لأنه أخ له من يوسف لا من مريم.

على أية حال فمؤلف هذا الإنجيل يستهدف إقناعنا بأنه كان يعيش وقت ولادة يسوع لنستوثق بشهادته.

وليس ببعيد أن يكون المؤلف مسيحياً من الأمميين عاش فى القرن الثانى.[1]

والذى نراه نحن هنا أن مؤلف هذا الإنجيل يستحيل أن يكون يعقوب المذكور بكونه أخاً ليسوع، ويستحيل أيضاً أن يكون أى يعقوب من اليعاقبة الذين سبقت الإشارة فى هذا السياق إلى ذكرهم فى إنجيلى متى ولوقا، وفى سفر الأعمال، وذلك أنه يتضح من سياق هذا الإنجيل أن مؤلفه مطلع على الأناجيل المعتمدة، ومستوعب جيداً لقصة الميلاد فى كل من متى ولوقا حتى إنه ليقتبس بعض عباراتهما، وأنه يستهدف بعمله أن يضع إنجيلاً دفاعياً يحاول به استدراك ما فات تلك الأناجيل المعتمدة، وحل الإشكالات التى ترتبت على قصورها فى الرواية التاريخية. وهو إذن قد درس تلك الأناجيل المعتمدة، ثم درس أيضاً الإشكالات التى أثيرت بسببها حول مريم ونسبها، وحملها بالمسيح وعذراويتها، ووجود إخوة مزعومين ليسوع.

وهذا إذن يعنى أنه يستحيل أن يكون هذا الإنجيل قد كتب فى القرن الأول أو حتى فى مطلع الثانى، وإنما ينبغى أن يكون بعد اعتماد الأناجيل الأربعة التى يقولون بها، ولم يتحقق ذلك قبل منتصف القرن الثانى، بما يستلزم تأخير تأليفه إلى ما بعد ذلك.

أما الاستشهاد بكتابات يوستينوس الشهيد المتوفى سنة ١٦٥ الذى يذكر أخباراً تشابه بعض ما يتضمنه هذا الإنجيل للزعم بأنه عرفه، وأفاد منه بما يستوجب كونه

١- Joseph B. Tyson: P. 199 - 200.

ألف قبل زمنه، أو فى زمنه، فهو فى نظرنا احتمال واه حدا، إذ كان هذا التشابه لا يوجب بالضرورة علمه به، ونقله عنه، وإنما قد يؤكد شيئاً آخر هو أنه كانت هنالك وثائق ومصادر أخرى أسبق من مؤلف هذا الإنجيل ومن يوستينوس الشهيد، وأن كلا الرجلين قد أفاد فى عمله من تلك الأصول السابقة.

وإذا كنا نعر ذلك الإنجيل من مخطوطة يونانية ترجع إلى القرن الثالث ومن عدة ترجمات متأخرة، مع احتمال وضعه فى أواخر القرن الثانى، فإن هذا يعنى أن المعلومات التى ذكرها لابد أن تكون قد وصلته عن مصادر مدوّنة، أو تقاليد لها اعتبار كبير كانت شائعة أو معلومة لبعض الناس زمن تدوينه، وعلى ذلك فدعوى الباحثين الآن بتفرد هذا الإنجيل بهذه المعلومات دعوى نسبية لا تمنع من اكتشاف وثائق أخرى تسبقه أو تعاصره تتضمن هذه المعلومات، أو بعضها، وعندئذ قد لا يكون هو المصدر الوحيد، أو الأفضل، أو الأقدم، لأى دعوى من الدعاوى التى جاءت به، وإنما قد يكون مجرد حلقة من سلسلة ترتبط كل حلقة فيها بما قبلها حتى تبلغ أول الحلقات.

على أية حال فإن مؤلف هذا الإنجيل قد كشف عن غايته فى ثلاثة جوانب:

الأول: أن المؤلف يصب اهتمامه بالدرجة الأولى على مريم بالتحديد فى ميلادها المعجز. ونذرها للمعبد، بما يشابه قصة النبى صموئيل فى العهد القديم، ويختص بتوليتها بجانب من اهتمام الكهنة ويوسف. كما يركز المؤلف على فارق السن الكبير بين مريم ويوسف. فعندما انطلق يوسف إلى الاكتتاب معها فى بيت لحم كان بادى الحيرة: أيقول إنها زوجته، أم ابنته.

كذلك فإن القول بدوام عذرايتها (بعد ولادة يسوع) تعالج هنا بصورة مباشرة. ومن ثمة نرى الاستيعاب التام لقصة الميلاد فى الأناجيل المتشابهة على النحو الذى يعزز القول بدوام البتولية.

الجانب الثانى: دعوى المؤلف بأن مريم من نسل داود: فالتقاليد التى نراها فى متى ولوقا خلقت إشكالاً حول هذه النقطة، إذ أكد كل منهما أن يسوع قد ولد ولادة عذراوية، وأنه من نسل داود، وأثبتا ذلك من خلال ذكرهما لنسب يوسف، وإذ زعما أن يوسف من

سبط داود، ولم يذكرا ذلك بشأن مريم، ومن ثمة برزت المشكلة هكذا: إذا كان يوسف ليس أباً بالحقيقة ليسوع، فكيف يكون يسوع من نسل داود؟ وهنا حاول المؤلف أن يحل هذه المشكلة بقوله: إن مريم كانت من نسل داود! وبهذه الطريقة أصبح يسوع من نسل داود، ومولوداً أيضاً ولادة عذروايةا!

أما الجانب الثالث: فهو عن إخوة يسوع، وذلك أن كلاً من متى - ولوقا عندما أثبتا عذراوية مريم، أشارا أيضاً إلى إخوة ليسوع، كما أن يسوع قد ذكر على أنه ابنها البكر، ولم يذكر على أنه ابنها الوحيد، وقد رأينا أيضاً أن يعقوب كان يدعى أخاً ليسوع. وقد حل المؤلف هذه المشكلة بأنهم إنما كانوا أكبر منه، وكانوا أبناء ليوسف الذى ماتت زوجته قبل مريم.(١)

وهكذا أصاب المؤلف ثلاثة أهداف: الأول تمجيد مريم، والثانى: التوكيد على أهمية البتولية. والثالث: حل بعض المشكلات التى تناقلها التقليد فى قصتى متى ولوقا.

إن كتاب يعقوب لم يكن قط من الأناجيل المعتمدة، لكن بعض مضامينه لقيت قبولاً واسعاً فى العالم المسيحى، فتسمية والدى مريم (يواقيم وحنة) تذكر لأول مرة فى هذا الكتاب.

كما أن العذراوية الدائمة لمريم تبنت الكنيسة القول بها منذ القرن الخامس.

كذلك فإن القول بإخوة غير أشقاء ليسوع صار موضع اهتمام منذ القرن الرابع للرد على القائلين بأنهم كانوا مجرد أقارب أو أبناء عمومة.

وأخيراً فإن عقيدة الحمل بمريم بغير دنس Immaculate of Mary وهو تعليم يرجع إلى التقاليد التى دونها كتاب يعقوب قد صار يدعى إليه كعقيدة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ سنة ١٨٥٤م.(٢)

---

١ - لم ينفرد إنجيل يعقوب بدعوى أن يسوع كان له أخوة غير أشقاء من زوجة ليوسف قبل مريم. فقد قال بهذه الدعوى أيضاً إنجيل بطرس: (إذ جاء فى تعليق أوريجانس على الآية السابعة عشرة من إنجيل متى أن الناصريين اعتبروا يسوع ابن يوسف ومريم، وأنهم (بنوا على التقليد الذى يدعى إنجيل بطرس فقالوا بأن أخوة الرب (يسوع) هم أولاد يوسف من زوجة أولى قبل مريم - أنظر: أسد رستم: إنطاكية العظمى - ج١ - ص٨٠ تعليق١.

٢- Joseph B. Tyson: P. 200 - 201.

النص الثانى

المسيح .. وخلق طير من طين

قال الطبرى فى تفسير قوله تعالى على لسان عيسى: (إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) .... حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا ابن إسحق:

(أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوماً مع غلمان من الكُتّاب، فأخذ طيناً ثم قال: أأجعل لكم من هذا الطين طائراً؟ قالوا: أو تستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربى. ثم هيأه حتى إذا جعله فى هيئة الطائر نفخ فيه، ثم قال: كن طائراً بإذن الله. فخرج يطير بين كفيه[1]..).

وهذا النص الذى نقلــه الطبرى عن ابن إسحق نجد أصله فى إنجيل آخر غير معتمد وضع برمته للحديث عن طفولة المسيح وعجائبه التى اجترحها فى طفولته ما بين سن الخامسة وسن الثانية عشرة، وذلك هو الإنجيل المسمى: (إنجيل الطفولة لتوما) The Infancy Gospel of Thomas فقد جاء فى ذلك الإنجيل رواية عن يسوع حين كان فى الخامسة يلعب قرب غدير: (فجبل طيناً ناعماً، وصنع منه اثنى عشر عصفوراً، وفعل ذلك فى يوم (السبت) فشكاه أحد اليهود إلى يوسف لأنه يدنس السبت. وبعد تأنيب يوسف له، صفق يسوع بيديه، وصرخ قائلاً: (طيرى) فابتعدت العصافير وهى تزقزق).[2]

ونلاحظ اختلاف النصين فى المكان الذى وقعت فيه الأعجوبة، وكذلك فى أسلوب التعبير عنها حيث يتضح من الرواية الإسلامية محاولة صبغها بالصبغة القرآنية. ولكن المضمون صحيح حيث يتفقان على اجتراحه لذلك فى سن الطفولة.

والحقيقة التى ينبغى أن نتنبه إليها أن كلا النصين يصادمان القرآن!!

١- تفسير الطبرى: ج٣ ص١٩٠.

٢- ف. كيزيتش: المسيح فى الأناجيل الأربعة: تعريب ميشال نجم. حواشى الفصل الخامس ص١٢٥، تعليق٤.

فنص الطبرى عن ابن إسحق أن عيسى فعل ذلك وهو طفل فى الكتاب أمام غلمان من نفس سنه.

ونص إنجيل توما عن طفولة المسيح أنه فعل ذلك قرب غدير من الماء وكان فى الخامسة من عمره، وهذا أيضاً يعنى أنه كان يلعب مع غلمان صغار من مثل سنه.

بينما يدل النص القرآنى أن عيسى فعل معجزة خلق طائر من الطين وقت بعثته، وقيامه بتبليغ رسالته، وكان ذلك على رأس الثلاثين من عمره حسب النصوص الإنجيلية، يقول النص القرآنى فى بيان ذلك:

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

(ورسولا إلى بنى إسرائيل: أنى قد جئتكم بآية من ربكم: أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله،

(وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله،

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم،

(إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين).[1]

فهذا النص القرآنى يكشف بوضوح أن تلك الخارقة بخلق طائر من الطين كانت مسوقة من عيسى وقت بعثته كبرهان على صدق دعواه، يؤكد ذلك الطبرى نفسه بإسناده عن محمد بن جعفر بن الزبير: (ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم: أى تتحقق بها نبوتى، وأنى رسول منه إليكم)، وإذا صح ذلك، وأن بعثته كانت على رأس الثلاثين على ما قالت به الأناجيل فهذه الخارقة إذن يفترض فيها ألا تحدث قبل ذلك، وإلا صادمت النص القرآنى.

وهكذا نجد الإسلاميين ينقلون تلك الأخبار عن الأناجيل، أو عمن يروونها عن تلك الأناجيل، ولا يفطنون إلى تعارضها مع النصوص القرآنية وبهذا تيسر السبيل لخصوم القرآن أن يزعموا أن محمداً قد نقل ذلك من تلك الأناجيل غير المعتمدة، غير مدركين

١- آل عمران: ٤٨ - ٤٩.

أن تحقيق الخبر كاف فى حد ذاته لكشف تهافت تلك الأناجيل، وأنها حرفت حقائق تاريخية عن جهل أو عن عمد مما كان له أثره البعيد بعد ذلك فى طمس رسالة المسيح الحقيقية.

ومن النصوص الإسلامية التى ترجع أيضاً إلى إنجيل الطفولة الذى نحن بصدده ما نقله الطبرى عن ابن إسحق فى هذه الرواية:

(حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحق قال:

(لما بلغ عيسى تسع سنين، أو عشراً، أو نحو ذلك، أدخلته أمه الكتاب فيما يزعمون، فكان عند رجل من المكتبين يعلمه كما يعلم الغلمان، فلا يذهب يعلمه شيئاً مما يعلمه الغلمان إلا بدره إلى علمه قبل أن يعلمه إياه، فيقول: ألا تعجبون لابن هذه الأرملة: ما أذهب أعلمه شيئاً إلا وجدته أعلم به منى!). [1]

وهذا النص الذى نقله الطبرى عن ابن إسحق ارتفع به بعض السفلة ممن لا خلاق لهم إلى مرتبة الحديث، ونسبوه إلى الرسول ذاته، وها هى ذى روايته كما حققها ابن حجر فى لسان الميزان.

(عن إسماعيل بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق - أبو يحيى التيمى: بسنده عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً:

(أن عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب، فقال له - المعلم -: أكتب: بسم الله، فقال له عيسى: وما بسم الله، قال: لا أدرى! قال له عيسى: (باء) بهاء الله، (سين) سناؤه، (ميم) مملكته، وفسر أبو جاد على هذا النمط).

(قال ابن عدى: وهذا باطل...

(وساق له ابن حبان حديث (أبو جاد) بإسناد ابن عدى، وقال: كان يروى (الموضوعات) عن الثقات، لا تحل الرواية عنه بحال). [2]

١- تفسير الطبرى: ج٣ ص١٩٣.
٢- ابن حجر: لسان الميزان ج١ ص٤٩٣ - ٤٩٤.

وكما رأينا فإن نص ابن إسحاق ونص الحديث الموضوع يلتقيان على مضمون واحد، وهو الشهادة لعيسى بسعة العلم منذ طفولته، وإحاطته بأسرار الحروف كرموز لحقائق مستورة لا يعلمها إلا الراسخون فى العلم، وهو من أهم سمات النزعات الغنوسية التى غلبت على المسيحية منذ أواخر القرن الأول، وقد عانت المسيحية من آثارها حتى اليوم.

وقد جاء أصل هذا المضمون فى إنجيل طفولة المسيح لتوما بما يوافق الروايتين الإسلاميتين وبالأخص الحديث الموضوع الذى ينسب زوراً إلى الرسول ﷺ، إذ ذكر كاتب الإنجيل:

(أنه عندما أرسل يسوع إلى المدرسة ليتعلم حروف الهجاء، أبى أن يسمع عن الحرف الثانى (الباء) حتى يشرح له معلمه كل ما يتعلق بمدلول الحرف الأول (الألف)، ثم قام يسوع بنفسه يشرح دلالة الألف لمعلمه المحنق الغارق فى دهشته).[1]

وننتقل بعد ذلك إلى التعريف بإنجيل توما عن طفولة المسيح:

لكن يلزمنا من أجل ذلك أن ننبه إلى أن هناك إنجيلين غير معتمدين ينسبان إلى هذا المدعو (توما) Thomas أحدهما إنجيل الطفولة الذى ذكرنا بعض النصوص الإسلامية هنا على أنها ترجع إلى روايات منقولة عنه، والآخر يدعى أيضاً (إنجيل توما) The Gospel of Thomas أو (إنجيل توما القبطى) The Coptic Gospel of Thomas والفرق بين الأثنين أن إنجيل الطفولة عبارة عن رواية تنصب فى إطار تاريخى عن حياة المسيح فى طفولته. أما إنجيل توما المسمى (إنجيل توما القبطى) فهو تجميع لعدة أقوال مأثورة تبلغ عدتها ١١٤ قولاً يوردها على أنها أقوال سرية للمسيح كان يدلى بها إلى أخصائه المقربين من تلاميذه. وليس هنالك بينها أى ترابط، ولا يشملها أى إطار روائى أو تاريخى، وإن كان يمكن مقارنة بعض تلك الأقوال بنظائر لها فى الأناجيل المعتمدة.

وقد ظل هذا الإنجيل مفقوداً يعرف به الباحثون من بعض إشارات قليلة جاءت

١- Joseph B. Tyson: The N.T . and Early Christinity, P. 202.

عند بعض المؤلفين القدامى ولا يقعون على أصله إلى أن تم اكتشاف مجموعة من المخطوطات بلغ تعدادها اثنتين وخمسين مخطوطاً قرب مدينة نجع حمادى بصعيد مصر سنة ١٩٤٥م كانت جميعاً باللغة القبطية التى نقلتها بدورها عن أصول يونانية فُقد معظمها، وكان منها هذا الإنجيل المنسوب إلى توما تلميذ المسيح. ويرجح بعض الباحثين أن هذه المجموعة ترجمت إلى القبطية حوالى القرن الرابع الميلادى عن تلك الأصول اليونانية ومنها الإنجيل المذكور.

وعلى ذلك فالذى يعنينا الآن هو (إنجيل الطفولة لتوما): The Infancy Gospel of Thomas: الذى تأثرت به الكتب الإسلامية فيما نقلت من روايات وأخبار عن طفولة المسيح:

لقد صمتت الأناجيل المعتمدة عن طفولة المسيح فيما عدا إنجيل لوقا الذى أورد رواية (ص٢ : ٤١ – ٥٢) عن حوار جرى بين يسوع ابن الثانية عشرة ومعلمى المعبد، ولم تزد عن ذلك. ومن ثمة حاول مؤلف إنجيل الطفولة أن يملأ هذه الفجوة بذكر عدة أحداث وقعت من يسوع فيما بين الخامسة والثانية عشرة:

(فهو يصنع عصافير من الصلصال فى يوم (السبت) ثم يصفق لها فتطير.

(ويموت طفل لوقته لأنه ضرب يسوع على كتفه.

(وفى إحدى المرات، عندما كان بعض الأطفال يلعبون معاً فى الطابق العلوى من المنزل سقط أحدهم فمات، وتعرض يسوع للتأنيب، وإذا به يحيى الطفل الذى أقر بأن موته لم يقع بقصد من يسوع.

(وعندما اقتطع يوسف النجار لوحاً من الخشب، وجاء قصيراً عن طوله الأصلى، مطه يسوع، فامتد إلى طوله الأصلى.

(وعندما أرسل إلى المدرسة ليتعلم مبادئ الكتابة، أبى أن يسمع عن الحرف الثانى حتى يبين له معلمه كل ما يتعلق بمدلول الحرف الأول، ثم قام بنفسه يشرح دلالة الألف لمعلمه المحنق الغارق فى دهشته).

وينتهى إنجيل الطفولة برواية لوقا عن يسوع فى المعبد فى سن الثانية عشرة.

ويرى البعض أن إنجيل الطفولة ظهر فى نفس الحقبة التى ظهر فيها إنجيل يعقوب الذى تحدثنا عنه من قبل، أى فى منتصف القرن الثانى أو بعد ذلك.

ويدل التحقيق على أن مؤلف هذا الإنجيل غير معروف، وإن كان ينسب إلى توما الوارد ذكره فى الأناجيل الثلاثة المتوازية Synoptics وكذلك أشار إليه إنجيل يوحنا (ص٢٠ : ٢٦ - ٢٩) فى أحداث ما بعد الصلب.

وهو على أية حال مجموعة من الحكايات الشعبية التى يشيع أغلبها شفاهاً، والتى تبدو لذلك وليدة بيئات وثنية، إذ لا تنطوى على شئ من الشعائر اليهودية إلا فيما نقلته من الأناجيل القانونية المعتمدة.

وهذا الإنجيل يحمل ملامح الغنوسية، فالتفسير الرمزى مثلاً للألف الذى ينسب إلى يسوع يوافق نظريات غنوسية كثيرة. وإذا كانت الكنيسة لم تعتمد هذا الإنجيل إلا أنه يتمتع بشعبية ضخمة تدل عليها ترجمته إلى لغات عديدة، وظهوره فى كتابات كثيرة فى الزمن القديم.[١]

١- Joseph B. Tyson: P. 201 - 202.

وبعد ..

فلعله قد اتضح من الصفحات السابقة أن التراث الأبوكريفى لليهودية والمسيحية على السواء لم يكن بمعزل عن النقل إلى العربية، والتأثير بقوة فى الوجدان الإسلامى من طريق التفسير والتاريخ والقصص الدينى على ما رأينا من النماذج التى قدمناها فى هذا السياق.

وانا لا أستبعد أن يكون التراث الأبوكريفى للدينيين المذكورين قد سبق الدافع إلى نقله إلى اللسان العربى قبل الإسلام، ثم ازدهر فى العصر الإسلامى.

ذلك أنه يتضح لنا مما أثبتناه خلال صفحات هذا الكتاب أن الإنجيل الذى ترجمه ورقة بن نوفل كان هو الأصل العبرانى لإنجيل (متى). وأنه حسب ما بيناه بشأن هذا الإنجيل لا يصح انتظار المطابقة بينه وبين المعروف حالياً بهذا الاسم لأن الإنجيل الحالى هو فى الواقع ترجمة (معدلة) أضيفت إليها عناصر لم تكن فى الأصل كقصة الميلاد، ودس ألفاظ الربوبية والتأليه بشأن المسيح. وغير ذلك من العناصر التى تصبغه بصبغة بولس وعقيدته فى تأليهه، وتجرده من صورته الأصلية الخالية من هذا التحريف المتعمد.

لذلك اعتبر المسيحيون الأصل اليونانى المعدل هو الصحيح، ومنه جاءت كل الترجمات والنسخ الحالية، واعتبروا الأصل العبرانى إنجيلاً أبوكريفيا أى دخيلاً ومنحولاً، وممنوعاً من جانب الكنيسة، وإن غطوا ذلك بزعم أن الأصل العبرانى مفقود.

وإذا كان ذلك الإنجيل العبرانى لمتى قد صار فى نظرهم إنجيلاً أبوكريفياً منذ القرن الثانى للميلاد، ومع ذلك ترجمه ورقة إلى العربية، فما الذى يمنع أن يكون قد ترجم أيضاً كتابات أبوكريفية أخرى من التراث المسيحى تخدم مذهبه وعقيدته، أو فعل ذلك غيره ومثل ذلك يقال أيضاً بشأن التراث اليهودى الأبوكريفى:

فقد علمنا من مذاهب النصارى المتهودين أنهم يعتمدون التوراة كأصل أول، ثم بعد ذلك الإنجيل.

وعلمنا أنه من اللازم لهم ترجمة التوراة مع ترجمة الإنجيل حتى تستقيم لهم عقيدتهم، ويستكملوا إطار دينهم.

فما الذى يمنع إذن أن تكون بعض الكتب اليهودية الأبوكريفية قد ترجمت أيضاً إلى العربية قبل الإسلام، وليس فى زمنه فحسب لاستكمال بعض التصورات أو التطلعات الوجدانية عند الجمهور؟

وقد يعزز هذا الفرض أن بعض الرسائل المتضمنة فى العهد الجديد للمسيحيين، وتنسب إلى شخصيات كانت تتسم بمذهب النصارى المتهودين كانت تعول تعويلاً كبيراً على التراث اليهودى الأبوكريفى، وذلك مثل رسائل: كل من بطرس ويهوذا، ويعقوب، والرسالة إلى العبرانيين رغم انحرافها الظاهر.

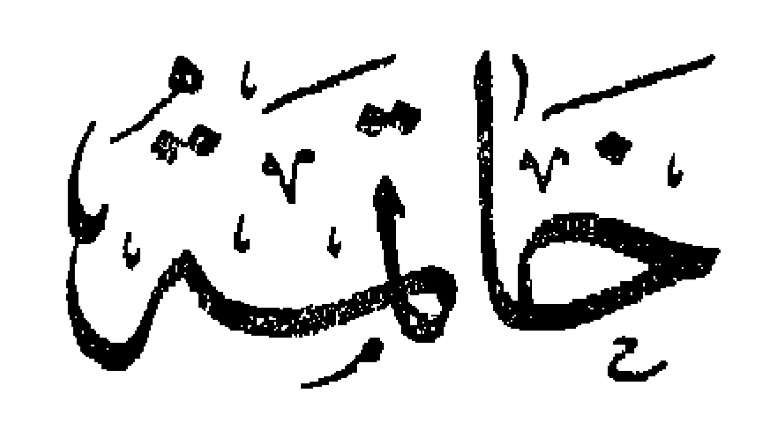
وإذا قيل إن اعتبارها أبوكريفية قد يكون من عوامل الميل عن ترجمتها قبل الإسلام. سألناهم فما الذى جعلها تترجم بعد الإسلام؟

هل جد جديد فى ملتهم، أم سحبوا معايير تقنينهم ووضعوا أخرى غيرها؟

القضية إذن أن اليهود والنصارى فى البيئة العربية قد اهتموا بترجمة لكتابهم المقدس إلى العربية قبل الإسلام، وفى زمن الإسلام. وكذلك بعض التراث الأبوكريفى لهما.

وإذا كان هنالك من فرق فهو: أن الدافع الذى استنهضهم قبل الإسلام إلى الترجمة قد قوى واشتد فى زمن الإسلام، لتثبيت أبناء دينهم من جهة، ولإشباع وجدانهم بقصص وأخبار يناظرون بها قصص القرآن وأخباره من جهة أخرى. وقد يمكن لهم فى الطعن على الإسلام، والنيل منه، حسب ظنونهم.

التراث الأبوكريفى إذن للديانتين اليهودية والمسيحية قضية ضرورية، لابد من طرحها، والاهتمام بها من جانب المسلمين، حتى يتمكنوا من التعرف الصحيح على كل مصادر الإسرائيليات التى تسربت إليهم، وينقوا ثوبهم الأبيض الناصع من كل الأدران التى رانت عليه من آثارهما. وليتعرفوا الحجة القويمة لدعم ما يستقر لهم صوابه، ودفع ما اشتبه، وارتد إلى أصول دخيلة من هذا الطريق أو ذاك.



لعلنا الآن، وبعد ما قدمناه على صفحات هذا الكتاب، نستطيع أن ندعى أننا قدمنا ما يكفى من الشواهد التى تثبت ترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية قبل البعثة المحمدية، وفى زمنها، ثم من بعد ذلك. وهى حقيقة لم يعد من المجدى فى نظرى أن أكابر بشأنها، أو أتهيب من إقرارها.

وقد أثبت أيضاً أن الترجمة العربية لم تقتصر فقط على نصوص الأسفار المعتمدة فى التوراة والإنجيل .. بل تعدتها أيضاً فى زمن الصحابة والتابعين إلى ترجمة أسفار غير معتمدة من كلا المهدين، حتى لقد ظهر ذلك جلياً فى بعض مروياتهم فى كتب التاريخ والتفسير والقصص الدينى.

وقد آن لنا أن نستأنف النظر فى التعرف على تاريخ الإسرائيليات فى الإسلام.

وأن نستأنف النظر أيضاً فى جوامع الحديث التى تعتبر حتى الآن صحيحة ومسلمة، وعلى رأسها صحيح البخارى، وصحيح مسلم، لأن هذه الجوامع هى أيضاً قد تسرب الشك إلى صحة بعض ما ورد فيها مما ينسب إلى الرسول الكريم ﷺ، كما بيناه بشأن الحديثين: (أعددت لعبادى الصالحين..)، و(مرضت فلم تعدنى...).

ولن يتسنى للمسلمين أن يبلغوا من ذلك ما ينبغى إلا أن يتعرفوا على ما اكتشفه النصارى واليهود من أسفار يهودية منحولة تركت آثارها على كثير من النصوص الواردة فى كتب النصارى، وكتب المسلمين.

إننا لا نبغى بذلك أن ننكر حديثاً واحداً يصح عن رسول الإسلام، ولكننا نسعى إلى تنحية كل ما يمكن أن يثبت البحث الصحيح أنه منحول عليه، أياً كان راويه، فالرواة بشر يعرض لهم من السهو والنسيان، وضعف النفس والخلق، ما يعرض لسائر البشر. فلا عصمة إلا للرسول ﷺ فيما يتلوه من وحى ربه، وما عدا ذلك فهو موضع نظر وتحقيق.

ومن ثم فلابد من استئناف النظر فى تقييم رواة الحديث المحمدى من الصحابة والتابعين ومن يعدهم على معيار حاسم من التعديل والتجريح بلا تهيب أو تردد، فالدين فوق الأشخاص، والحقيقة فوق أى اعتبار.

وأنا أعلم ما فى هذا الذى أطالب به من قسوة يخشاها الذين يركنون إلى الراحة، ويستكينون إلى لذة التقليد والتسليم.

ولكن الكلمة أمانة كما قلت من قبل.

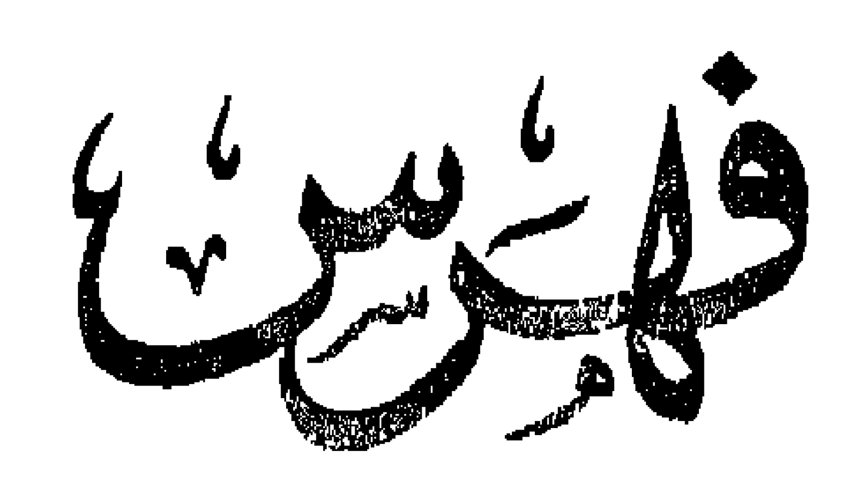
وحسبى أن أؤدى أمانتى على النحو الذى قدر لى أداؤها به.

وما توفيقى إلا بالله: (إنى توكلت على الله ربى وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربى على صراط مستقيم).[1]

حسنى يوسف الأطير

القاهرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

١- هود: ٥٦.


فهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	7
القسم الأول **آثار من ترجمة الأسفار المعتمدة في العهدين القديم والجديد قبل البعثة المحمدية وبعدها حتى نهاية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي**	11
الفصل الأول: ترجمة التوراة والإنجيل قبل البعثة	13
ترجمة التوراة إلى العربية	15
ترجمة الإنجيل إلى العربية	20
الفصل الثاني: ترجمة التوراة والإنجيل في زمن البعثة	31
الفصل الثالث: ترجمة التوراة والإنجيل في زمن الصحابة والتابعين	39
الفصل الرابع: الترجمة الشاملة والمنظمة للكتاب المقدس إلى العربية في القرن الثاني الهجري – الثامن للميلاد	59
القسم الثاني **آثار من ترجمة أسفار منحولة في العهدين القديم والجديد ظهرت عند الإسلاميين منذ البعثة وحتى نهاية القرن الثاني للهجرة - الثامن للميلاد**	71
الفصل الأول: بيان عن ترجمة الأسفار المنحولة في التوراة والإنجيل إلى العربية زمن الإسلاميين أو قبلهم	73
المجموعة الأولى: نصوص من الأسفار اليهودية المنحولة	75

الموضـــوع	الصفحة
الفصـل الثانى: ابو هريرة ينقل من أسفار يهودية منحولة نقل منها	
كتبة الإنجيل	81
أولاً: فى صفة الجنة	82
ثانياً مرضت فلم تعدنى	95
الدعوى الأولى: بيان إضافة النص إلى الإنجيل	108
الدعوى الثانية: المصدر اليهودى المنحول للنص	
الإنجيلى والنص الإسلامى	118
الفصـل الثالث: الأبوكريفيات المسيحية	123
الفصـل الرابع: من نصرانيات ابن عباس	126
١- المسيح و(الكلمة)	127
٢- هل سجد يحيى للمسيح؟	128
٣- الحمل بالمسيح	132
الفصل الخامس: المجموعة الثانية: روايات إسلامية لأصول وردت فى	
الأناجيل غير المعتمدة	139
النص الأول: الحمل بمريم وتسمية أبويها	139
النص الثانى: المسيح وخلق طير من طين	147
وبعد	153
خاتمة	155
فهرس	157



مؤلفات

الأستاذ / حسنى يوسف الأطير

- سر مريم (بين القرآن والإنجيل)
- عقائد النصارى الموحدين
- البدايات الأولى للأسرائيليات فى الإسلام
- المواجهة بين القرآن والإسرائيليات
- المذهب الدهرى عند العرب
- الشفاعة وأصول الوثنية العربية
- نشأة الكتابات الدفاعية بين الإسلام والنصرانية





البداياتُ الأولى للإسْرائيليَات فى الإسْلام



مكتبة النافذة